مشروع اشوربانيبال للثقافة 1

البحث الآثاري
في النوبة الشمالية والسودان



ايسيدور سافتتش كاتسنلسون

ترجمة

د. اسامة عبد الرحمن النور

البحث الآثاري في النوبة الشمالية والسودان

مشروع اشوربانيبال للثقافة 1

البحث الآثاري
في النوبة الشمالية والسودان

ايسيدور سافتتش كاتسنلسون

ترجمة

د. اسامة عبد الرحمن النور



اشوربانيبال للكتاب

البحث الآثاري في النوبة الشمالية والسودان
د. اسامة عبد الرحمن النور

الطبعة الاولى©: ٢٠١٨
جميع الحقوق محفوظة للناشر: اشوربانيبال للكتاب
ان الدار غير مسؤولة عن اراء المؤلف وافكاره انما يعبر الكتاب عن اراء مؤلفه
العراق-بغداد-شارع المتنبي





1

المرحلة الاولى من الاستكشاف الآثاري

الرحالة الأوائل

لم يترك الرحالة الأوربيون الذين نجحوا في الاختراق حتى منطقة "جزيرة مروى" في نهاية القرن السابع عشر بداية الثامن عشر وصفاً لعاديات القدم. ترك الأول من بين أولئك الرحالة- الطبيب بونسيه، المتجه إلى الحبشة، ملاحظات تهم أولئك الراغبين في التعرف على الوضع في البلاد في تلك الفترة وعلى عادات أهلها وتقاليدهم. وقُتلّ الرحالة الثاني- لونوار دى روول، الذى عين بديلا لـ بونسيه، في سنار بعد أن رأى فيه السكان المحليون ساحراً، في حين طمع الملك في الكنوز التي يقال بأنها بحوزة دى روول. المصير الذى لحق به وصلنا من رواية الرحالة الشهير د. بروس الذى اكتشف منابع النيل الأزرق.

ترجع أولى رسوم معابد النوبة السفلى بين فيلة والدير للمجهود الذى بذله النقيب الدنماركي ف. ل. نوردن الذي بعثه الملك خرستيان في عام 1737 إلى مصر والسودان. ووفق د. بروس، الذى زار في عام 1769 كل من مروى وأكسوم، في جمع مادة ضخمة، إلا أن عاديات القدم في السودان والنوبة الشمالية لم تحظ باهتمامه. الشيء نفسه يمكن قوله عن و. أ. براوون، الذى وصل في عام 1793 عن طريق القوافل إلى دارفور، إلا أن عمله يمثل مرجعية لا غنى عنها للباحث في مجال الأثنوجرافيا. وفي شتاء 1813/1812 وصل ت. لوج إلى إبريم وترك وصفاً لها إلى جانب بعض الآثار الأخرى الموجودة إلى الشمال منها.

لم تفقد أهميتها أعمال الرحالة أواخر العقد الأول من القرن التاسع عشر والذين لم يكتفوا بتقديم ملاحظات قيمة عن الوضع في البلاد وعاداتها وتقاليدها ومعتقدات أهلها، بل قدموا وصفاً لسلسلة من الآثار التي اندثرت في الوقت الحالي أو لا زالت باقية أطلالاً مدمرة. في العادة دائماً ما ألحقت بالوصف رسوم رائعة نفذها

أولئك الرحالة، كما واحتوت تلك الأعمال على معلومات قيمة للغاية مأخوذة عن أعمال الكتاب العرب القروسطيين التي تعطى معلومات ذات أهمية عن تاريخ البلاد. هنا لابد بداية من ذكر بوركهاردت الذى قابل ت. لوج في عام 1813 في كورسكو وتابع رحلته عبر الجندل الثاني ووصل حتى تيمنارا التي تبعد 650 كيلومتر إلى الجنوب من أسوان. وفي العام التالي عبر الصحراء النوبية بمعية قافلة ووصل إلى شندي قاطعاً حوالي المائتي كيلومتر بمجرى نهر عطبرة حتى قوز رجب متجهاً إلى كسلا ومنها إلى سواكن. وكان بوركهاردت الأول من بين الرحالة الأوربيين الذى شاهد معظم الآثار القائمة حينها في النوبة الشمالية: المعابد الكهوف في أبى سمبل وتوشكى، والمدافن التلية في قسطل. الوصف الذى يقدمه مدعم بمقتطفات مثيرة مأخوذة عن المؤرخين والجغرافيين العرب، على سبيل المثال ابن سليم الأسواني.

ترجع أسبقية البحث عن الآثار في جبل البركل، هناك حيث كانت قائمة في وقت سابق نبته، إلى كل من وادنجتون وهانبرى، الذين أقاما هناك قرابة العشرة أيام واستكشفا الأهرام والمعابد في العاصمة القديمة لـ كوش وقاما برسمها. الحقيقة أنه يجدر الاعتراف بأن الرسوم التي نفذاها بعيدة عن أن تكون مكتملة من حيث مطابقتها للأصول. وأجرى وادنجتون وهانبرى حفريات محدودة في جزيرة أرقو، وقاما برسم خريطة للمعبد في صلب، وهى خريطة لا زالت صالحة لم تفقد قيمتها، ذلك أن أجزاء من المعبد اندثرت في وقت لاحق. كذلك جذبت اهتمام الاثنين المقبرة المحفورة في الصخر في دوشه. لقد اهتم وادنجتون وهانبرى أكثر من الرحالة السابقين لهما بآثار عاديات القدم، وهو ما يجعل عملهما هاماً بالطبع لعلماء الآثار المعاصرين.

أهمية كبيرة يمثلها وصف رحالين فرنسيين- ف. كايو ولينان دى بلفوند- الذين اخترقا البلاد جنوباً إلى أبعد مما وصل اليه وادنجتون وهانبرى واظهرا اهتماماً رئيساً بآثار الماضي، ويمكن واقعياً عدهما مؤسسين لعلم آثار كوش.

تجول كايو في البلاد في وقت متزامن مع كلا الإنجليزيين وادنجتون وهانبرى، كما أنه التقى بهما عند عودتهما، إلا أن اللقاء كان بارداً ولم يتحصل منهما كايو على معلومات عن جبل البركل. حاول كايو مع رفيقه ليتورزيه أن لا تفوته زيارة أي مكان يمكن أن تكون فيه عاديات القدم. لا مجال هنا لتتبع هذه الرحلة بتفصيل، يكفي أن نقول أن كايو وصل إلى الجنوب من أم درمان وصعد مع النيل الأزرق حتى سوبا، حيث عثر على أبى هول، ومن ثم تابع رحلته إلى فازوغلى. كان كايو الأول من بين الرحالة الأوربيين الذى زار أطلال مروى (البجراوية)، والنقعة، والمصورات الصفراء ووصفها، وحدد مواقع العديد من المعابد، وتوصل من خلال دراسة النقوش إلى أن كوش حكمت فيها ملكات، وهو ما لم يكن عادة متبعة في مصر. مظهر ملابس الناس والحلي التي تزينوا بها في النقوش اختلفت عن الملابس والحلي المصرية، ومن ثم استنتج كايو أن شعباً مختلفاً عن المصريين ثقافياً عاش هناك. عبر النقعة امتدت، في رأيه، الطرق التجارية أبعد إلى الجنوب الشرقي- إلى الحبشة، وإلى الشرق- إلى البحر الأحمر. في طريق عودته توقف كايو عند جبل البركل حيث اهتم بوصف الأهرام. لم يستطع بالطبع تحديد لا زمن تشييدها ولا أسماء من بناها. وبالقرب من تمُبس (الجندل الثالث) وُفق في الكشف عن محجر حيث وجد تمثالاً غير مكتمل (يسميه أهل المنطقة حالياً أوكونوندي) أشبه بالتمثال الملقى في جزيرة أرقو. قام كايو في كل مكان زاره برسم الخرط وإجراء رسوم رائعة لازالت حتى الآن تعد مصادر أولية، ذلك أن بعض تلك قد اندثرت. ويدين كل من ف. لبسيوس ولترون لـ كايو بنسخ النقوش الهيروغليفية والإغريقية. وقبل بدء رحلته كان كايو قد استفاد من كتاب "صورة مصر" الذى وضعه العلماء الفرنسيين الذين رافقوا حملة نابليون والذي كان قد صدر للتو حينها، ولذلك نجده يتقيد في تصنيفه للآثار بالمبادئ نفسها التي اختطها واضعوا "صورة مصر".

قضى لينان دى بلفوند عاماً في السودان (من أغسطس1821 حتى يوليو 1822). للأسف فإن الملاحظات التي وضعها في شكل دفتر يوميات، والرسوم الرائعة ظلت على مدى قرن بأكمله صعبة المنال قد تم نشرها قبل وقت قصير فقط. زار لينان "جزيرة مروى" وتتميز ملاحظاته بالإيجاز والدقة. المثير فيها أنها وضعت تحت تأثير الانطباع المباشر ويظهر الرحالة الشاب (كان عمره حينها 22 سنة) قدراً عالياً من الدراية وسعة الإطلاع. يصر لينان على أنه في جبل البركل، حيث شدت انتباهه الأهرام التي رسمها ونظفها في بعض الحالات، قامت مدينة نبته لا مدينة مروى كما اعتقد البعض. تميزت رسومه وخرائطه بالدقة وتكاد تبز رسوم كايو وخرائطه، ولا تقل حتى عن أعمال الفنانين المرافقين لبعثة لبسيوس اللاحقة. رائع ودقيق كان نسخه لنقوش معابد المصورات الصفراء والنقعة.

في عام 1819 قام المهندس ف. جاو برسم المعابد في النوبة الشمالية، وتدعم تلك الرسوم أعمال كايو ولينان دى بلفوند الذين منحا هذا الإقليم اهتماماً أقل. ولنفس الوقت تعود رحلة المستعرب الروسي و. سينكوفسكى إلى النوبة الشمالية، حيث زار ابو سمبل وسجل وصفاً أدبياً رائعاً للمنطقة. وقام د. بلتسونى بتنظيف الرمال التي تراكمت على مدى القرون لتغطى المعبد الكهف في أبى سمبل، والذي أصبح نتيجة عمله قابلاً للدراسة.

أما شامبليون الذى ترأس البعثة الفرنسية إلى مصر في عامي 1928-1929 فإنه لم يصعد جنوباً إلى أبعد من وادي حلفا. وترجع المادة التي قام بجمعها هو والمرافقون له- نسخ النقوش، ورسوم المعابد وخرائطها- تقريباً في مجملها إلى العصور التي كانت البلاد فيها تحت سيطرة الفراعنة، أو إلى العصر الإغريقي-الروماني. وتم نشر نتائج بعثة شامبليون بعد وفاة هذا العالم العبقري وأضيفت إليها المواد التي كشفت عنها بعثة توسكانيا التي ترأسها تلميذ شامبليون ي. روزليني.

في عام 1833 زار "جزيرة مروى" د. هوسكنس الذى يكرر كتابه في أجزاء منه، وفي حالات يضيف إلى، معلومات كايو. وزود كتاب هوسكنس أيضا بالعديد

من الرسوم والخرائط. وأعجب هوسكنس إعجابا شديداً بأهرام مروى التي بدت له فائقة الروعة و "رفيعة المستوى من وجهة النظر المعمارية الفنية" والتي تعرف عليها محقاً بوصفها مدافن ملكات كوش وملوكها. وقد تم التأكيد لاحقاً على صحة ملاحظاته الخاصة بالتخطيط المميز لتلك المقابر، بخاصة تكهنه بان جثمان الملوك يوجد في غرف للدفن تحت البناء الفوقي، وهى غرف يقود إليها الدهليز. وقد وضع هوسكنس خرائط للمجموعات الثلاث للأهرام، والتي تتطابق مع الجبانات الملكية الثلاث في مروى. من ثم زار هوسكنس المصورات الصفراء، حيث رأى في المعبد الموجود هناك " قصراً للصيد " خاصاً بالملك (وكان كايو قد رأى فيه مدرسة) أو قصراً يقضى فيه الملك فصل الخريف. مع ذلك فإن هوسكنس بعد دراسته للمبنى حدد محقاً زمن تشييده بالعصر الإغريقي-الروماني. إلا أن زيارة هوسكنس لجزيرة مروى لأسباب مختلفة كانت سريعة، ورغم أنه نجح في زيارة النقعة وفي عبور البيوضة فإن المادة التي جمعها تكاد تكون شحيحة. لكنه جمع في مروى عند جبل البركل محصولاً هائلاً من الرسوم والخرائط والمخططات للمعابد. ثم زار بعد ذلك جزيرة أرقو، وتمُبس، وصلب (هنا قام بوضع خريطة للمعبد ورسم أطلاله)، وجبل دوشه حيث نجح بمساعدة أعمال شامبليون في التعرف على الخرطوش الملكي لاسم سنوسرت الثالث وتحتمس الثالث، كما زار سمنة وكمة. ورغم أن كتاب هوسكنس يحوى معلومات هامة للباحث في مجال الأثنوجرافيا أكثر منه للباحث في مجال الآثار والتاريخ، فإن بعض ملاحظاته المتفرقة لا زالت تحتفظ بأهميتها اليوم.

هنا لا بد من ذكر الطبيب العامل في الإدارة الإيطالية د. فرليني الذى وصل إلى الأهرام الملكية في مروى، ولم يكن يختلف كثيراً في أسلوب تعامله مع المدافن القديمة عن اللصوص المعاصرين أو الأقدمين. واحد من الأهرام والذي كان الأفضل من حيث محافظته على شكله، تعرض بمعنى الكلمة للهدم من قبل فرليني الذى توجت أعماله التدميرية بالكشف عن الكثير من التحف الفنية الذهبية والفضية والمعادن الأخرى. جزء منها وصل لاحقاً إلى ميونخ وآخر إلى برلين. من ثم فإن فرليني

قام بالفعل بنهب المدفن الوحيد الباقي حتى تلك الفترة لملكة مروية. قبل ذلك قام فرليني ورفيقه ستيفانى بنجاح أقل (بالنسبة له) بتدمير أربعة أهرام أخرى. ولحسن حظ البحث العلمي لم يحاول أحد بعدهما "التنقيب الآثاري" في السودان حتى نهاية القرن التاسع عشر.

تحتوى مذكرات ي. روزجيرا عن الرحلات إلى أقدم ثلاثة أقطار العالم ملاحظات متفرقة تخص آثار السودان، فقد اخترق في عام 1838 البلاد أكثر من غيره ووصل إلى سنار، وفازوغلى ، والروصيرص، وبلغ المناطق الجنوبية الغربية للحبشة، ومر في طريق عودته بجبل البركل. يجدر بنا الإشارة إلى أن المادة عرضت بطريقة مشوشة.

في عام 1842 وصل إلى النوبة السفلى استمراراً لعمل شامبليون أ. بريس دى أفينى والذي حالفه الحظ بالكشف في كوبان عن مسلة تحوى معلومات عن مناجم الذهب في الصحراء الشرقية وعن عجائب سيتى الأول ورمسيس الثاني في جلب الماء إلى العاملين هناك.

أخيراً، وكأنما بمثابة ختام للمرحلة الأولى من الاستكشاف الآثاري للسودان، توجهت إلى هناك بعثة لبسيوس الشهيرة 1842-1845 والتي شكلت أعمالها عصراً بحاله في تاريخ العلم عن مصر القديمة. يمثل الأطلس، المؤلف من اثني عشر مجلداً، بحق مرجعاً قيماً، ذلك أنه احتوى على كم هائل من أعمال النسخ للنقوش والرسوم الموجودة في أهم الآثار، والتي نفذت بقدر عالٍ من المهارة والدقة. وقد سار طريق البعثة عبر كورسكو إلى مروى، وهى منطقة أخضعت للبحث الشامل. من ثم عمل العلماء والفنانون في النقعة والمصورات الصفراء، وزاروا سوبا، وسنار، وفي طريق العودة منحوا بعض الوقت لدراسة جبل البركل، وأرقو، وتمُبس، وسيسبى، وصلب، وصادنقا، وجزيرة صاى، وسمنة، وكذلك معابد النوبة السفلى. وقد حمل لبسيوس الكثير من النقوش والرسوم معه إلى ألمانيا. قبل بداية القرن العشرين. وكانت النصوص التي جمعها لبسيوس، وكذلك مسلات جبل البركل التي اكتشفها ماريت،

خاصة بالملوك الكوشين بيا، وأسبالتا، وحورسيوتف، ونستاسن، إلى جانب كتابات المؤرخين والجغرافيين الإغريق والرومان المصادر المكتوبة الوحيدة عن نبته ومروى.

تميزت هذه المرحلة الأولى، إن صح التعبير، "بالجمع السلبي"؛ اذ اكتفى العلماء، باستثناء فرلينى، في الأساس بما يجدونه على السطح، وفقط في حالات متفرقة بتنظيف الرمال المتراكمة بفعل مئات السنوات من على هذا أو ذاك من المركبات المعمارية. بالطبع علينا مراعاة عدم تطور مناهج الوصف وقلة المعرفة باللغة والتاريخ. لكنه مع ذلك لا يجوز التقليل من أهمية منجزات الأعمال العلمية لأولئك الرواد وحماسهم. لقد كانوا أول من لفت الانتباه إلى آثار ثقافة منسية منذ أجيال وحاولوا لفت الانتباه إليها. ومن المنطقي القول بأن اللوم لا يقع عليهم كون أن دراسة آثار السودان على مدى نصف القرن اللاحق بقيت في وضع متدني، فعلياً ما من عالم اهتم بدراستها حيث وجهت كافة الإمكانيات إلى مصر. يحتمل أن تكون الأوضاع غير المستقرة في البلاد التي أدت في نهاية المطاف إلى اندلاع الثورة المهدية (1883) سبباً في ذلك حيث أصبح وصول الأوربيين إلى المراكز الثقافية والسياسية للملكة المروية مستحيلا.

2

خزان أسوان الأول وإنقاذ آثار النوبة الشمالية

لم يتبدل الوضع حتى في السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر، عندما بدء في عام 1899 في بناء خزان أسوان في الشلال(الجندل الأول)، والذي كان سيرفع منسوب النيل في البحيرة الناشئة إلى 107 متر. هكذا غطت المياه جزءاً من النوبة السفلى يبلغ طوله حوالي المائتي كيلومتر (حتى جرف حسين).والحقيقة أنه بفترة قصيرة سابقة، قام بدج في عام 1897 برحلته الأولى إلى السودان إلا أن مذكراته لم تتعد ملاحظات عابر سبيل قد تكون ذات فائدة لمن يهتم بالوضع في البلاد في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، والباب المكرس لآثار نبته لا يحمل الكثير حيث يورد بدج آراء وتقييمات الرحالة الذين شاهدوا تلك الآثار فيما قبل، وإلى حد بعيد يفرض على القارئ الاكتفاء بما يورده من وصف سطحي في الأساس. فقط المتخصص المهتم بدراسة أو ترميم أي من المعابد أو الأهرام يمكنه أن يجد في كتاب بدج تفاصيل متفرقة غير متوفرة في مصادر أخرى. إن مجمل المادة التوضيحية، باستثناء صور فوتوغرافية قليلة، مأخوذة من أعمال أخرى، في الأساس من أطلس لبسيوس. وقد كشف بدج في جبل البركل عن واحد من الأهرام، إلا أن الحفر أجرى بطريقة غير مجربة وكذلك التقرير الذى كتب عن العمل، وعندما اصطدم بالمياه الجوفية أوقف العمل.

خلال رحلته الثانية في عام 1898 قام بدج بزيارة مروى، وخلال رحلته الثالثة في عام 1903 زار سوبا، وودبانقا، والنقعة، والمصورات الصفراء وغيرها. عندها كشف عن بعض الأهرام بهدف توفير إمكانية "مشاهدة الرحالة لها". حفرياته هذه هي الأخرى غير ذات أهمية مثلها مثل حفرياته التي أجراها في نبته. ويعطى بدج وصفاً لأهرام الجبانتين الشمالية والجنوبية في مروى، وإذا كان لهذا

الوصف أهمية قبل نشر تقرير بعثة ريزنر، من حيث كونه يمثل إضافة إلى أعمال لبسيوس، فانه حالياً شأنه شأن أعمال بدج الأخرى يمثل أهمية تدوينية لا أكثر.

عندما اتخذ القرار بتعلية خزان أسوان إلى سبعة أمتار أخرى، وهو ما كان يعنى إغراق وادي النيل حتى كورسكو، بدأت مصلحة الآثار المصرية، التي كان يترأسها حينها ج. ماسبيرو، في إجراء المسح المنتظم للنوبة الشمالية . بدأت أعمال التشييد في عام 1907، وفي عامي 1904-1905 أجرى ماسبيرو رحلتين تخصصيتين للتعرف على الآثار في المنطقة المهددة بالغرق. في الرحلة الأولى وصل حتى أبو سمبل، وفي الثانية حتى المحرقة، وقد رافقه أ. فايجل الذى عُين مفتشاً أولا لمصلحة الآثار المصرية. في عام 1906، وقد كُلف فايجل بإجراء مسح شامل للمنطقة المهددة وذلك بهدف تحديد تكلفة أعمال صيانة الآثار والإشارة إلى المواقع المستقبلية للتنقيب.

كان تقرير فايجل بمثابة الوصف الآثاري الأول للنوبة الشمالية الذى يستجيب لمتطلبات العلم مع أنه كان متسرعاً كما يعترف بذلك فايجل نفسه، مشيراً في مقدمته: "التقرير الحالي لا يدعى الكمال، انه مجرد وصف مبدئي لآثار الماضي ومخلفاته، التي يتوجب دراستها لاحقاً". جمع فايجل خلال رحلته التي دامت شهرين مادة هائلة، وأعطى وصفاً موجزاً لمعابد النوبة الشمالية والرسوم التي تزينها، ووصف الحصون والجبانات البادية على السطح، وقام برسم شقوف الفخار التي تم الكشف عنها في المنطقة، كما أنه قام بنسخ النقوش الصخرية دون أن يدعى الدقة الباليوجرافية في ذلك. وقام بالتقاط كم هائل من الصور الفوتوغرافية، أصبح التقرير سبقاً لموجز تاريخ النوبة الشمالية من عصر المملكة القديمة حتى القرن السادس الميلادي، وكذلك وصفاً متخصصاً لمدافن المجموعة الثالثة C-Group التي لم تكن قد عرفت بعد بذلك الاسم. أطلق فايجل على تلك المدافن تسمية pan-graves مدافن مماثلة كان قد تم الكشف عنها قبل فترة وجيزة من قبل فلندرز بيتري وميسوم في مصر العليا.

لازال عمل فايجل محتفظاً بقيمته اليوم، إنه بحق أول استعراض منتظم لآثار المنطقة التي استخف بها حتى تلك الفترة، فالكثير مما نسخه وصوره فايجل أصبح في الوقت الراهن بعيداً عن منال العلم.

خلال عدة سنوات لاحقة واصل د. ريزنر عمل فايجل1907-1908، ومن ثم مساعده س. فيرث، وقد توجب دراسة وبقدر المستطاع التنقيب في كل المواقع الأثرية بين الشلال ووادي السبوع؛ في المناطق الأقل إثارة افترض الاكتفاء بالمسح أو بإجراء المجسات التجريبية.

أجريت الأعمال بصورة محكمة، وهو أمر يعود الفضل فيه لـ ريزنر- أحد مؤسسي المنهجية الحديثة في البحث الآثاري، وقد تمت في السنة الأولى دراسة رقعة تمتد 50 كيلومتر على ضفتي النيل بين الشلال وتافا. هنا تم الكشف عن 58 جبانة، وحفر العديد منها ووصفت المقابر وصفاً دقيقاً، وعلى أساس تحليل المادة المكتشفة، المواد الجنائزية، الفخار في المقام الأول، طرح ريزنر جدولا كرونولوجياً لا زال، مع تعديلات طفيفة متفرقة، يستخدم حتى الآن لدراسة تاريخ النوبة الشمالية:

- **الفترة ما قبل الأسرية**: المبكرة، والوسطى، والمتأخرة (كما هو الحال في مصر)
- الفترة الأسرية المبكرة (الأسر من الأولى حتى الرابعة): تقريباً ثقافة المجموعة الأولى A-Group.
- المملكة القديمة (الأسرتين الخامسة والسادسة)، تقريباً ثقافة المجموعة الثانية B-Group.
- المملكة الوسطى (الأسر من السابعة حتى السادسة عشرة)، تقريباً ثقافة المجموعة الثالثة C-Group.
- المملكة الحديثة (الأسر السابعة عشرة حتى العشرين)، ثقافة المجموعة الرابعة D-Group؛ لا. تختلف مخلفاتها عن المملكة المصرية الحديثة.

- الفترة المتأخرة (الأسر العشرين حتى الثلاثين).
- الفترة البطلمية- الرومانية.
- الفترة البيزنطية (تشمل ثقافة المجموعة المجهولة X-Group، أي النوباديين، الذين سموا سابقاً البليميين).
- الفترة القبطية.

مثل هذا التسلسل المنسوب إلى فترات محددة مفهوم، كما هو معروف، لا توجد في الأجزاء الشمالية للمنطقة ما بين الجندلين الأول والثاني، أي "الدوديكاسخيونس" الإقليم الثاني عشر لمصر الرومانية، فعلياً أية آثار للفترة النبتية المروية، في حين تتمثل بصورة جيدة آثار عصر السيادة البطلمية والرومانية.

بعد الوصف المفصل للجبانات ولمدافن متفرقة يقدم ريزنر في الفصول الثلاثة الختامية موجزاً لملاحظاته: في الفصل الأول منها يتتبع أشكال المقابر؛ وفي الثاني أنماط الدفن؛ وفي الثالث يدُّعم الجدول الكرونولوجى المقترح من جانبه.

في العام اللاحق تقدم فيرث أبعد إلى الجنوب -حتى كاشتامانى، إلى الشمال من دكة، لتشمل حفرياته أكثر من ثلاثين جبانة .توجد في هذا الجزء قلعة ايكور (كور) التي يرجع تاريخها إلى المملكة الوسطى، والتي درس فيرث تحصيناتها، إلى جانب سلسلة من مواقع الإقامة بين جرف حسين وكشتامانى. وقد أكد فيرث على صحة فرضيات ريزنر الكرونولوجية. مثله مثل غالبية العلماء، افترض فيرث أن ثقافة المجموعة الثالثة جُلبتّ من الخارج من قبل قبائل وافدة، ولا تمثل تطوراً طبيعياً لثقافة المجموعة الثانية. الجدير بالذكر أن هذه الفرضية ظلت معتمدة لفترة طويلة وعدت مقبولة بصورة عامة.

أجريت أعمال التنقيب في العامين التاليين بوتيرة أسرع، ذلك لقرب موعد غرق المنطقة تحت مياه البحيرة الناشئة، وفي النتيجة شملت الحفريات نصف النوبة الشمالية، وقد تم النجاح في تنظيف 44 جبانة أخرى والعثور في اكميندي

على آثار موقع إقامة ضخم يرجع تاريخه للفترة المسيحية المبكرة، وفي القطاع الأخير من دكة حتى وادي السبوع، تم الكشف عن أولى المدافن المروية التي يعود تاريخها للعصر الإغريقي - الروماني. كما تم التأكيد عليه فيما بعد فإن سلطة ملوك مروى امتدت في الدوديكاسخيونس فقط بصورة متقطعة لفترات زمنية قصيرة نسبياً.

في عام 1908 نقب د. جارستانج جبانات دكة، وكوبان، وكشتامانى، إلا أن تقييم النتائج التي تحصل عليها ممكن فقط على أساس تقرير موجز قصير، أيضاً كان وصف رحلة برستد التي قام بها للنوبة الشمالية بعيداً عن إضافة جديد يذكر وفي حين كان ريزنر وفيرث يقومان بحفر ودراسة المواقع الأثرية، عملت مجموعة من العلماء برئاسة ج. ماسبيرو في دراسة وترميم ووصف معابد النوبة الشمالية العديدة الواقعة بين أسوان وأبى سمبل. نتيجة هذا الجهد المشترك على مدى ثلاثين عاماً (1909-1938) ظهرت سلسلة من خمسة عشر مجلداً "معابد النوبة الغارقة" والتي تحوى مادة هائلة ذات طبيعة متنوعة لا زالت لم تستخدم كلياً حتى اليوم.

لقد احتلت المعابد موقعاً بارزاً في حياة البلاد الاقتصادية؛ تحتوى النقوش والرسوم التي غطت جدران النخس والصالات والمقادس على معلومات تاريخية لا حصر لها، وإنه بفضل النقوش في معبد دكة نعرف أن أركامانى كان معاصراً لبطليموس الرابع، لا بطليموس الثاني، كما ساد الاعتقاد في السابق على أساس كلمات ديودور. في بعض المعابد تم الاحتفاظ بنقوش ملوك مروى وأسماءهم، على سبيل المثال أدخير أمانى في ديبود. ويشير الخرطوشان الحاملان لأسمى بطليموس السابع والثامن في معبد ديبود إلى أنهما تحديداً، لا ملوك مروى، سيطرا على هذه المنطقة في القرن الثاني ق.م. احتفظت جدران معبد كلابشة بالنقش المعروف لملك النوباديين سيلكو "القرن السادس"، وأخيراً فإن المخربشات العديدة الهيروغليفية، والديموطيقية، والمروية، والإغريقية، كثيراً ما تمثل مصدراً لمعلومات لا توجد في أي مكان. من الصعوبة عدم تقييم هذه النصوص أيضاً بالنسبة لدراسة ديانة كوش، بخاصة في عصر نبتة -مروى.

في وقـت متزامن مـع بعثـة مصلحة الآثـار المصـرية بـدأ عمـل بعثـة جامعـة بنسـلفانيا والتي اشـترك فيها عـالم الآثـار الشـهير ل. وولى، وعنـدما نشـر تقاريرهـا - ف جريفيـث تبـين انهـا ركـزت هـذه البعثـة أعمالهـا في ثلاثـة مواقـع : أريكـا ، وكـارانوج وبـوهين، بالإضـافة الى ذلـك تمـت دراسـة المعابـد المسـيحية المبكـرة، وبـدأت أعمـال التنقيب في أريكا في عـام 1907 واسـتمرت حتى عـام 1910، وعلينـا الاعتراف، أنـه لـم يتم الكشف في النوبة الشمالية في وقت واحد مثل هذا الكم من آثار العصر المروى. نشـأت مواقـع الإقامـة في اريكـا، وبـوهين، وكارانـوج، حيـث وجـد فيمـا يبـدو مركـز لـدارين ضخمين، في عصر ازدهار الثقافة المروية. الحقيقة أنه من المبرر في تلك الفترة نظراً لقلة التجربة والخبرة ولشح المعرفة أن عدت تلك الآثار منتمية للبليميين.

كشـف علمـاء الآثـار في أريكـا "حصـن" أحـد الزعمـاء القبليـين أرجعـوا تاريخـه لأزمان الأسرة الثامنة عشرة، اللافت للانتباه التشابه الكبير لبعض أجزاء هذا المبنى بمعمـار قبائـل وسـط أفريقيـا وجنوبهـا. يؤكـد المؤلفـون على دلالـة السـكان المحليـين، وأشـاروا في الفصـل التمهيـدي، إلى أن المجلـد الحـالي الـذى ينشـرونه ينتمي في الأغلـب إلى أفريقيـا أكثر منـه إلى مصـر، رغـم أنـه ولقـرب الأخيرة لا يجـوز نفي تأثيرهـا ونفوذهـا المباشـر "الاسـتعمار" كمـا يكتبـون. كتالـوج الفخـار المنشـور، الـذى وجـد عـلى السـطح في جبانـات الجزيـرة وشـبلول، وكـذلك وصـفه، كـان بالفعـل بمثابـة تأسـيس لدراسـة المصنوعات الفخارية المروية التي تدل على مستوى عالمن المهارة والذوق الرفيع وهى مـا يثير الإعجـاب اليـوم، واكتسـبت الحفريـات في كـارانوج أهميـة أكبر، حيـث تـم الكشـف في موقـع الإقامـة وفي الجبانـة وكلاهمـا يرجـع للعصـر المروى، عـن العديـد مـن المـواد الصـنعية، أدوات للزينـة وفخـار. وقـد سـمح التحليـل الـدقيق لتلـك المكتشـفات مـع مقارنتهـا بأشـكال الـدفن بالتوصـل إلى سلسـلة مـن التـدقيقات والضـبط الهامـة لتحديـد التـواريخ. وكـرس فصـل خـاص للمسـائل المتعلقـة بالكرونولوجيـا بمقارنـة مـا جمعوه من مواد مع إفادات الكتاب الإغريق والرومان والابيجرافيا الرومانية. يعطى

المؤلفـون ملحقـاً للمجلـد الثالـث مـوجز تـاريخ الحاميـات الرومانيـة في حـدود مصـر الجنوبية، سابقين بذلك عمل لوكيه.

يعطي "حصن" كارانوج والمنازل المجاورة لـه مادة دسمة عن خصائص مركز إداري حـدودي للمملكـة المرويـة. اسـتنتاجات المـؤلفين وتعميمـاتهم تحتـاج حاليـاً إلى سلسـلة مـن الإضـافات والتـدقيقات الأساسـية، في المقـام الأول فيمـا يتعلـق بخطـأ التواريخ التي يقترحونها، فكما أشرنا فإنهم نسبوا كارانوج للبليميين.

أضافت الحفريات في بوهين الكثير بالنسبة للمعلومات المتوفرة في تلك الفترة والتي كانـت تعتمـد أساسـاً على حوليـات الفراعنـة ونقـوش الوجهـاء المصـريين، التي أوردت معلومـات عـن النوبـة الشـمالية عنـدما كانـت خاضـعة لمصـر، أي في عصـر المملكتين الوسـطى والحديثة، وتم الكشـف عن معابد، بخاصة المعبد الـذى شيدته الملكة حتشبسوت، وعن تحصينات وجبانات يرجع تاريخها لفترة الأسر الثانية عشرة- السابعة عشرة، والتي تشير إلى حياة المصريين الـذين أرسلوا إلى هنا. لم يتم الكشـف عـن الكثير مـن المسـلات، لكـن التي وجـدت تحمـل أسـماء وألقـاب بعـض الإداريـين المهمين، وهـو مـا سـاعد في تبيـان النظام الإداري الـذى اختطه الغـزاة، وهنـا وجـد في تلك الفترة واحد من المراكز الإدارية.

فيما يتعلق بمواقع الإقامة في العصر المروى فإنها لم تك غنية بصورة بادية لذلك اكتفت البعثة بالتنقيب فقط في منزلين وحفر مجسات تجريبية، الشيء نفسـه يمكن قولـه عـن المقـادس والمقـابر غير الكبيرة الموجـودة بـالقرب. ويلاحـظ أن د. رنـدال وماك ايفر تجاوزا الخطأ السابق واستنتجا بأنها خاصة بكوشيين لا بليميين.

هكـذا يمكـن القـول بأنـه في العقـود الأولى للقـرن العشـرين جـرت عمليـات استكشـاف نشطة في النوبة الشمالية، حيث ظلت مياه النيل في ارتفاع من عام إلى عام مع تعلية خزان أسوان، إلا أن الوضع إلى الجنوب من الجندل الثاني ظل على ما هـو عليـه دون تبـدل يـذكر اذا مـا اسـتثنينا أعمـال بـدج في مـروى التي لا يصـح عـدها عملاً جاداً.

3

جارستانج وآثار مروى

في الأعـوام 1903- 1908 قـام كروفـوت بسلسـلة مـن الزيـارات إلى "جزيـرة مـروى" وتـرك وصـفاً متسـرعاً للمـدن القديمـة التي زارهـا(مروى، والبعصـة، وسـوبـا، وجبـل قيلي وغيرهـا). وقـد تضـمن ذلـك الوصـف ملاحظـات صـحيحة عـن طبيعـة المنطقة، وعن نشاطات السكان في القدم، وعن طرق القوافل وما إلى ذلك، وأُلحق وصف كروفوت بصور فوتوغرافية وخرائط. وعلى أساس المعلومات التي قام بجمعها بـذل كراوفـوت محاولـة لإعـادة تركيـب تاريـخ مملكـة مـروى، في الأسـاس إقليمهـا الأوسـط. لكنـه لـم يـنجح لا في طـرح تـواتر الأحـداث ولا في إبـراز خصـائص الثقافـة المرويـة، إذ لا زالـت المعطيـات التي امتلكهـا محـدودة، ومع ذلـك فـإن عملـه لـم يفقـد أهميته حتى الآن.

بـدءاً من 1910/1909 شـرعت البعثـة التي يترأسـها عـالم الآثـار جارسـتانج في العمـل في مـروى، واسـتمر العمـل حتى انـدلاع الحـرب العالميـة الأولى، وللأسـف فـإن النتائج لم تنشـر بصـورة كاملة حتى اليوم، ولم تـر النـور سـوى تقـارير مبدئية عن تلك الأعمال.

في الموسـم الأول لتلـك البعثـة تـم تنظيـف معابـد امـون، وايـزيس، وأبادمـاك- الـه الحـرب بـرأس أسـد، بالإضـافة إلى جبانـات، وفي السـنوات اللاحقـة انحصـر نشـاط البعثة في مباني العبادة والقصور. الناس العاديين لـم يتم الاهتمام بتقصي آثارهم، ولا نعـرف حتى الآن نوعيـة التركيـب السـكاني لعاصـمة المملكـة المرويـة، مـا هـو نـوع نشـاطاتهم، مـا هـو نمـط حياتهم اليوميـة. الحقيقـة أنـه تـم الكشـف في أطـراف المدينـة عن كميات كبيرة من بقايا خام الحديد: أفران، أكوام خَبثَ. هكذا أصبح جلياً أحد أسباب ازدهار مروى: نشأ هنا أهم مركز للتعدين الذى امتد تأثيره بعيداً إلى الجنـوب والجنـوب الغربي والجنـوب الشـرقي. التقريـر المبـدئي الـذى كتبـه جارسـتانج تصـدره

موجز لتاريخ مدينة مروى اعتمد في الأساس على أعمال الكتاب الإغريق والرومان، وأرفق بالتقرير فصل كتبه أ. سايس عن تحليل رموز الكتابة المروية كما اقترحه جريفيث، كما شمل التقرير النقوش التي تم العثور عليها خلال التنقيب. ونعرف عن الأربعة مواسم اللاحقة من التقارير القصيرة التي تعطى تصوراً عاماً عن "المدينة الملكية" التي يبلغ امتدادها ثلاثمائة كيلومتر طولاء هنا تم الكشف، إلى جانب المعابد المذكورة، عن مبانٍ أخرى للعبادة، على سبيل المثال "معبد كلاسيكي"، وحمام يشبهان ما تم العثور عليه في بيرين باليونان، وكذلك حمام آخر "ملكي" أحدث وأشبه بالحمامات الرومانية، وأطلال مبنى يحتمل أنه كان مرصداً. العديد من شقوف الأواني الهلنستية والرومانية، كان من بينها المستورد، تسمح بتحديد مجموعات المصنوعات الفخارية وتساعد في توضيح تواتر التغير في الأسلوب والتقنية، ومن ثم الجدولة الكرونولوجية، تعكس تقنية البناء سمات العصر. المميز أن عصر الازدهار يتوافق مع العصر الهلنستي، أي أنه بدأ تقريباً من عهد أركامانى الذى تم في عصره القضاء على بعض بقايا التركيبات العشائرية البدائية، بخاصة المتعلقة باغتيال الملك الطقوسي، وبدءً من القرن الأول الميلادي تأخذ في الظهور الملامح الأولى لبداية الانهيار والتي تصبح أكثر وضوحاً مع مرور الوقت. ونجحت البعثة في الكشف عن آثار مدهشة للفن المنظور- تماثيل، جزئيات من أيقونات لم يتم نشرها حتى الآن. كما لم تنشر المواد التي عثر عليها في المرصد، وهى مادة هامة لتاريخ الثقافة المروية وعلاقتها بالعلم في القدم.

يُرجع جارستانج تأسيس المدينة إلى القرن السابع ق.م. عندما حكم، في اعتقاده، الملك أسبالتا، لكنه يبدو أن الإقامة نشأت هناك في وقت أسبق. كما أن جارستانج يعتقد بأن بترونى وصل بجيشه في عام 23 ق.م. إلى مروى وأن الحامية الرومانية بقيت هناك لمدة 10- 12 سنة. لكن وجهة النظر هذه لا تجد ما يدعمها من الوقائع ولم تجد تقبلا من قبل العلماء الآخرين.

الكثير من الأوعية المليئة بالرماد، ورماد الأموات المدفونين، وحطام المباني تبقى معياراً يشير إلى أنه حتى في مجال محافظ من مجالات الأيدولوجيا، كالدين، وقد انتشرت تأثيرات العالم الهلنستي التي شملت الطبقات الحاكمة. وان بعض المنازل المتفرقة التي تم الكشف عنها خلال أعمال التنقيب تنتمي على ما يبدو لفئات ذات ثراء، وبنيت بتخطيط مميز لبلدان الشرق: فناء مع غرف للمعيشة تحيط به ويدور حولها سور. لدى الحفر السريع في بعض منازل الحرفيين عُثر على آثار دالة على نشاطهم، الفخار بصورة رئيسة. على بعد كيلومترين أو ثلاثة من المدينة، يحتمل أن تكون تلك قرية بأطراف المدينة، كشف عن مسلة كبيرة خاصة بالملكة أمانى رينا والأمير أكينيداد، التي جهز سايس نشرها المبدئي.

على أساس المادة التي تحصل عليها قام جارستانج بتركيب التسلسل التاريخي التالي لتاريخ مروى: الفترة المروية المبكرة650-400 (؟) ق.م.؛ والفترة المروية المتوسطة 300 ق.م.؛ والفترة المروية المتأخرة العام الأول ق.م.- 350 م. إلا أن هذا التصنيف المرحلي لكونه اصطناعياً لم يصمد طويلا.

4

العلماء الإنجليز في فرس

تقريباً في الفترة نفسها- في الأعوام 1910-1913- بدأت أعمال بعثة جامعة أكسفورد برئاسة جريفيث في النوبة الشمالية بمدينه فرس التي كانت أحد المراكز الرئيسة في المنطقة، وأيضاً بدأت البعثة العمل في عاصمة كوش القديمة نبتة بين الجندلين الثالث والرابع. فقط بعد مرور ثمان سنوات على انتهاء العمل بدء في نشر تقارير قصيرة، بعد ما أصبحت نتائج حفريات ريزنر في جبل البركل وفي أماكن أخرى معروفة، بالتالي تيسرت لـ جريفث فرصة الاستفادة من استنتاجات ريزنر الأولية والتي كانت قد وجدت طريقها حينها إلى صفحات المجلات المتخصصة ونشرات المتاحف.

كان علماء الآثار الإنجليز قد عملوا عامين في فرس، وقاموا بدراسة هذه المدينة دراسة شاملة، حيث جذبت اهتمامهم بصورة خاصة القلعة التي يعود تاريخها إلى الفترة المسيحية، فإنهم، في نبتة الأوسع امتداداً، حصروا جهدهم في إجراء المسح للمدينة التي استمر عملهم فيها لعام واحد. ورغم أن القليل تم تنفيذه هنا، فانه نشر بصورة مضغوطة للغاية، فالفصل التمهيدي الذى يمثل مقدمة للتقرير اتسم بطابع اقتباسي، مردداً استنتاجات كل من ريزنر جريفيث، ومن ثم يطرح بإيجاز التاريخ البراغماتي للأسرة الخامسة والعشرين، معتمداً على حوليات بيا والمصادر الأخرى المعروفة حينها. ويستمر لإعطاء وصف منطقة موقع أطلال نبتة ويعدد النصوص المصرية التي ورد فيها ذكر للمدينة. وفيما يتعلق بالعمل الفعلي للبعثة فإن النتائج المتحصل عليها وصفت، كما أشرنا، بصورة مقتضبة. تم تنظيف المعبد في صنم حيث كشف عن تفاصيل معمارية كثيرة، وعن " كنز"، بالأصح، مخازن لحفظ المعادن والأسلحة الفائضة، وأيضاً عن جبانة غير مخصصة للملوك وأسرهم هي الوحيدة من نوعها المدروسة حتى الآن من جبانات منطقة المدينة.

استخدمت الجبانة بدءً من أزمان بيا تقريباً حتى منتصف القرن السادس ق.م. عندما كانت نبتة عاصمة لكوش، بالنسبة للفترة اللاحقة- المروية- فإنه تم الكشف عن بعض المقابر المتفرقة.

إجمالا تمت دراسة 1500 مقبرة، كان معظمها للأسف قد تعرض للنهب في أزمان سابقة، الغالبية العظمى منها، كما تشير إلى ذلك الجعارين التي نقشت عليها أسماء الفراعنة، يرجع تاريخها إلى الأسرتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين، وقد أعطى التقرير وصفاً لخصائص بعض المقابر وأجريت محاولة لتصنيفها. وتم أيضاً وصف المواد المكتشفة: الأواني الحجرية والبرنزية والطينية، والأدوات، والأسلحة، وأدوات الزينة. وقد فُسر اختلاف المقابر بكونها تنتمي إلى مجموعتين قبليتين لشعب واحد. عدم وجود جرد للمحتويات الجنائزية في المقابر يعيق إمكانية تحديد العلاقة المتداخلة من حيث الثروة بين المجموعات، وهو أمر كان ستكون له أهمية لتفسير التركيب الاجتماعي للسكان. المؤسف أكثر أنه، كما أشرنا، فإن جبانة صنم هي الوحيدة المدروسة حتى الآن من العصر النبتي في هذه المنطقة.

أعطت أعمال الحفر في فرس، إلى جانب آثار العصر المسيحي، مدافن خاصة بالمجموعة الثالثة، وتحصينات يرجع تاريخها للمملكة الوسطى بالإضافة إلى سلسلة من آثار المملكة الحديثة، التي تميز مرحلة السيادة المصرية على كوش.

5

العلماء الألمان في النوبة الشمالية

مثيرة وهامة الاستنتاجات التي توصلت اليها بعثة أكاديمية العلوم النمساوية التي ترأسها ج. يونكر نتيجة عملها في النوبة الشمالية في الأعوام 1910-1912. لم يختلف يونكر عن سابقيه فتأخر نشر نتائج بعثته مما سمح له بالاطلاع على أعمال ريزنر ليتوصل إلى تعميمات أكثر اتساعاً، في المقام الأول، فيما يتعلق بثقافة المجموعة الثالثة، التي تؤلف في نظر يونكر ثقافة محلية مثلها مثل ثقافة كرمة الأبعد جنوباً. ان الانفصام الأول الذى أصاب الثقافة المصرية-النوبية المشتركة وقع، في قراءة يونكر، في منتصف الفترة ما قبل الأسرية. في عصر المملكة الوسطى تضح معالم أقاليم امتداد الثقافة المصرية التى تتوافق من حيث الزمن مع تنامي تأثير ثقافة المجموعة الثالثة. هذه الاستنتاجات توصل إليها يونكر بداية بفضل النتائج التي تحصل عليها بفعل التنقيب في جبانة الكبانية، وفي العام التالي أكدت نتائج التنقيب في كل من ارمينا وتوشكه، بخاصة المواد الأنثروبولوجية على صحة استنتاجات يونكر.

في السنة نفسها التي أنهى فيها يونكر أبحاثه في النوبة الشمالية بدأ العلماء الألمان بقيادة ج. شتايندورف عملهم في عنيبة(ميام في المصرية القديمة) إلى الجنوب من توشكه، انقطعت أعمال هذه البعثة نتيجة اندلاع الحرب العالمية الأولى، لتباشر عملها مجدداً فقط في موسم 1931/1930 تم نشر التقرير التفصيلي في الأعوام 1935- 1937. ومن ثم فإن شتايندورف تمتع بفرصة الإطلاع على النتائج المتحصل عليها من الأعمال السابقة وان يبنى رأيه عليها.

لم تكشف البعثة التي ترأسها شتايندورف عن آثار من العصرين النبتي والمروي، لكنها كانت ذات أهمية بالنسبة لدراسة تاريخ كوش في الأزمان الأسبق. تم تثبيت تسلسل أحداث تاريخ كوش وفق الجدول الكرونولوجى الذى وضعه ريزنر.

أضاف اليه شتايندورف بعض التعديلات المصطلحاتية التي لم ترد من قبل في الأعمال العلمية، على سبيل المثال سمى ثقافة المجموعتين الأولى والثانية بمصطلح جديد هو "النوبية العتيقة" والتي وفق تحديده، تنتهي بالأسرة المصرية السادسة. المرحلة التالية "النوبية القروسطية" تشمل عصر المملكة الوسطى والمرحلة الانتقالية الثانية (فترة الانحطاط الثاني لمصر)- المتميزة بسيادة ثقافة المجموعة الثالثة. وتم في عنيبة للمرة الأولى دراسة موقع الإقامة الضخم الخاص بهذه الثقافة، ولذلك تمكن شتايندورف من اكتشاف سيادة عناصر محلية في تلك الثقافة. ط

إجمالا حدد شتايندورف تلك الثقافة بوصفها(Hochstand nubischen Eigenlebens) رغم أنها كانت أدنى من الثقافة المصرية المعاصرة لها. إذا كان التقرير الأول، الذى بدأ بموجز عام لتاريخ النوبة الشمالية منذ أقدم الأزمان حتى نهاية المملكة الحديثة، قد كرُس لوصف الجبانات ومواقع الإقامة المحلية، فإن التقرير الثاني كان وصفاً للآثار المصرية، واحتوى على العديد من المواد الخاصة بالتوسع المصري في كوش والعلاقات المتبادلة بين البلدين. وقد جعل الوصف التفصيلي وحصر المكتشفات الدقيق المفهرس هذا العمل المطبوع أحد أهم المصادر.

6

البحث الآثاري إلى الجنوب من الجندل الثالث

في الأعوام 1911-1914 أجرت البعثة الممولة من قبل السير ولكام حفرياتها في الجزء الجنوبي من الجزيرة، في جبل مويَّة (بين النيلين الأزرق والأبيض على بعد ثلاثين كيلومتر إلى الغرب من سنار القديمة). كما أشرنا مراراً فإن الجنوب الكوشي، بما في ذلك "جزيرة مروى" يكاد يكون غير مدروس من الناحية الآثارية، وأجريت الدراسات المنتظمة فقط في بعض الأماكن المتفرقة، من بينها العاصمة. من هنا جاءت أهمية الأعمال التي أجريت في جبل مويَّة، وهو الأبعد من بين المواقع فيما يبدو إلى الجنوب. إلا أن ما تم إخضاعه للحفر لا يتعدى 20% من مساحة الموقع. الإقامة هنا تم تأسيسها في حوالي القرن العاشر ق.م. وامتدت إلى ستمائة عام تقريباً. يرجع تاريخ ازدهاره إلى القرن السابع ق.م.، وبداية انهياره إلى منتصف القرن السادس ق.م.

في الاستعراض القصير، الذى احتوى على عرض للمراحل الأساسية لتاريخ كوش، يعترض أديسون على نظرية ريزنر عن الأصل الليبي للأسرة النبتية، ويشير بصفة خاصة إلى أن ما تم الكشف عنه في مدافن الكرو مما سُمىَّ برؤوس الأسهم "الليبية" هي أكثر شبهاً بما تم الكشف عنه في جبل مويَّة (حيث لم يكن هناك وجود لأي ليبيين بالطبع)، منها برؤوس الأسهم الليبية الحقيقية. إن تلك الحقيقة ذات أهمية حيوية بالنسبة لجذور المملكة النبتية، التي ارتبطت بعلاقات تجارية مباشرة مع جبل مويَّة وهو ما تشير إليه المكتشفات في الطبقات العليا للموقع. هكذا فإنه يتوفر لنا تصور إن لم يكن عن حدود نبتة السياسية فعلى الأقل عن مدى امتداد علاقاتها الاقتصادية وتأثيراتها الثقافية. للأسف لم يتم تحديد الأسباب التي أدت إلى ذبول الموقع. يفترض أديسون أن ذلك قد يعود، احتمالاً، إلى شح الأرض مع التزايد السكاني أو إلى هجرات قبلية دورية وهو ما يشير إليه الفخار. لكنه يترك هذه

الإشكالية مفتوحة رهناً بنتائج الدراسات الآثارية للعصر الحجري الحديث في شمال أفريقيا. وبنهاية عمل هذه البعثة جرت دراسة موقع إقامة آخر في أبى قيلي والجبانة التابعة له والذي يرجع تاريخه للعصر المروى المتأخر. ويقع الموقع في الضفة الشرقية للنيل على مبعدة 4-3 كيلومتر إلى الجنوب من سنار (حوالي 275 إلى الجنوب من الخرطوم). يقوم الموقع في رابية وكان مأهولاً من القرن الثاني- الأول ق.م. حتى القرن الثالث- منتصف الرابع الميلادي. الهام هو أن بعض المكتشفات- رؤوس أسهم حديدية ، وفخار- شديدة الشبه بما تم الكشف عنه في مقابر كارانوج التى يرجع تاريخها للفترة نفسها. من ثمَّ يمكن الحديث عن وجود درجة من الوحدة الثقافية ميزت مجمل المساحة الواسعة للمملكة المروية.

عند بدء أعمال التشييد مجدداً في خزان سنار في عام 1921 التى كانت قد انقطعت نتيجة اندلاع الحرب العالمية الأولى، تم الكشف في الضفة الشرقية للنيل الأزرق عن جبانة من العصر المروى. للأسف فإن مصلحة الآثار السودانية لم تعلم بذلك إلا بعد انقضاء عامين أو ثلاثة، عندما بدأت بعض المواد من المقابر المنبوشة في الظهور في متحف الخرطوم. بعض المكتشفات تفرقت في الأيدي، وبعضها فقد في سفينة غارقة في الطريق إلى انجلترا. وكان أديسون قد نشر في حينها تقارير عن تلك المكتشفات.

يقع الموقع على مبعدة من قرية الني، عندما زاره أديسون كانت أغلبية المقابر قد نبشت، ولم يتم النجاح لا في تحديد مركب المقابر ولا الأحجام الفعلية لحفرة الدفن والتي غالباً ما كانت بيضاوية واستخدمت لدفن أكثر من جثمان. من بين المواد التى وصلت إلى متحف الخرطوم كانت هناك أواني من البرنز تظهر مؤثرات إغريقية، وفخار ومصنوعات من المرمر وأدوات للزينة. الكثير منها يظهر تماثلاً مع مواد تمَّ العثور عليها في النوبة الشمالية. من هنا يمكن الاستنتاج بأنه إما أن تكون التجارة قد ربطت بين طرفي مملكة مروى أو أن تكون هناك تحركات للقبائل من الجنوب إلى الشمال، والعديد من الأواني تتماثل مع أواني ترجع إلى جبل مويَّة.

يشير الثراء الذى ميز المقابر، احتمالاً، إلى نشوء إقامة بحجم كبير ومزدهرة في جنوب البلاد لا تقل عن مواقع الإقامة في فرس وكارانوج في الشمال، وقد يكون هناك مركز إداري كما هو الحال في الموقعين الشماليين. بالتالي من المحتمل أن تكون حدود كوش امتدت أبعد إلى الجنوب ذلك أنه يصعب تصور نشوء موقع بهذا الحجم في أقصى نقطة في الحدود. للأسف، إذا استثنينا تقارير أديسون التى ذكرناها والعرض المختصر للغاية الذى كتبه قبل فترة قصيرة د. ديكسون فإن هذه المكتشفات المثيرة لا تزال غير منشورة.

7

التنقيب في كرمة

في بداية عام 1913 بدأت العمل في السودان بعثة العلماء الأمريكيين بقيادة ريزنر، واستمر نشاطها على ما يربو على العشرة أعوام لتجسد عصراً للبحث الآثاري في السودان. لقد قدم ريزنر ورفاقه لعملية إعادة تركيب تاريخ نبتة ومروى أكثر من أية بعثة أخرى، وتميزت أعمالهم بأنهم كانوا حريصين على اقتسام نجاحاتهم، ولو أن ذلك كان في البداية من خلال تقارير متقطعة، لكنهم نجحوا بسرعة في نشر التقارير الكاملة.

كان ريزنر محقاً، عندما كتب في مقدمة التقرير الكامل عن نتائج الحفريات في كرمة أن النوبة الشمالية تمثل من الناحية الآثارية "كتاباً مغلقاً"، وأن كل ما فعله كل من ماكيفر وولي وجارستانج رغم أهميته، ما كان كافياً للتوصل إلى استنتاجات معممة مقنعة. كل المعلومات عن الماضي الغابر لهذه المنطقة محدودة فقط في المعطيات المستقاة من النصوص المصرية، بخاصة أخبار الإداريين المصريين عن رحلاتهم إلى الجنوب وكذلك المعلومات الواردة في الحوليات الملكية بدءاً من حجر باليرمو.

استمرت الحفريات في كرمة على مدى ثلاثة أعوام (بدءاً من 1913 حتى بداية 1916)، ورغم أن الاستنتاجات التى توصل إليها ريزنر على أساس المادة التى اكتشفها كانت خاطئة، فإن الآثار التى كشف عنها القناع كانت عالية الأهمية بحيث سمحت فيما بعد بتغطية فصل كامل من فصول تاريخ كوش. الآن وفي الوقت الذى تتعرض فيه استنتاجات ريزنر لإعادة تقييم نقدي فإننا نعرف أنه اكتشف لا مستعمرة تجارية مصرية ولا مدافن نبلاء مصريين تزعموا هذه المستعمرة الواقعة في الطرق التجارية الجنوبية حامية لها، وإنما جبانة لزعماء محليين هم الأسلاف المبكرين للأسرة الكوشية الذين حكموا قبائل محلية أصيلة امتلكت ثقافتها المحلية

الخاصـة التى كانـت على درجـة عاليـة مـن التطـور. صـحيح أن ريزنـر حـدد بوضـوح المـدافن المسـماة مـدافن- شـاتى وطريقـة وضـع الجثمـان غيـر المصـرية، والطقـوس الجنائزيـة، لكنـه مـع كـل ذلـك ظـل ريزنـر أسـيراً لنظريتـه الخاطئـة، وتوصـل إلى استنتاجات غير صحيحة، محاولاً لوى عنق الوقائع وتطويعها لتلائم فرضياته. هكذا فـإن هـذه المـدافن بـالقرابين البشـرية المحتـواة فيها، وبانعـدام التوابيت فيها، وبوضـع الجثمان بـدلاً على عنقريب وما إلى ذلك فسرها ريزنر كبقايا من عصر أقـدم وكتأثير للعادات الأفريقية على المستعمرين المصريين.

حالياً فـإن كل المـواد الهائلـة التى جمعها ريزنـر، والتي وصـفها بدقـة ونشـرها تحتاج إلى إعادة نظر. تساعد تلك المواد كما سنوضح لاحقاً في الكشـف عـن الجـذور المحلية لثقافة نبتة ومروى.

أعطـت الجبانـة المرويـة غير الكبيرة الموجـودة في كرمـة آثاراً محـدودة للغايـة. المثير في تلـك المكتشـفات أنها مطابقـة تماماً لما تـم الكشـف عنـه في كارانوج: نفـس أسـلوب المصـنوعات مـن الزجـاج وتقنيتهـا، ونفـس رؤوس الأسـهم الحديديـة. بعـض المفارقـات الطفيفـة يمكـن تفسـيرها بـالظروف المحليـة: فكرمـة تقـع على بعـد مـا يزيـد عن 350 كيلومتر إلى الجنوب من كارانوج. بالتالي يجوز الحديث عن وحدة الثقافة في القرنين الميلاديين الثالث والرابع وفقاً لتقدير ريزنر.

التنقيب في البركل والكرو ونورى

في شتاء 1916/15 قام ريزنر بنفسه، بعد الدراسات الأولية في 1913/12، بالدراسة الشاملة لمعابد جبل البركل. نُشر التقرير عن النتائج التى تمَّ التوصل إليها خلال أعوام قبل تنظيف المعابد قام ريزنر بدراسة 25من الغرف الجنائزية في الأهرام الملكية الواقعة عند "الجبل النظيف". اتضح أنها جميعها كانت قد تعرضت للنهب في القدم، باستثناء واحدة ترك فيها اللصوص، نتيجة التعجل أو لسبب آخر، بعض المجوهرات ومنتجات فنية يرجع تاريخها للقرن الأول ق.م. من ثمَّ اهتم الآثاريون بتنظيف معبد آمون الكبير الواقع فيما بين النهر وجبل البركل. أحاطت بالمعبد من جهة الجبل مبان أخرى. إلى الجنوب وجدت بعض المعابد الأخرى بما فيها المعبد الذى شيده أسبالتا ورممه سنكامانسكن. المعبد الأقدم من بينها يعود تاريخه إلى القرن الخامس عشر ق.م. في حين شيد الأخير من بينها في العصر المروى. فيما يتعلق بمعبد آمون الهائل والذي بدء في تشييده منذ الأسرة الثامنة عشرة فإنه تعرض لإعادة البناء أكثر من خمس مرات ليتخذ في نهاية المطاف أسلوباً وتخطيطاً مروياً كلياً.

عثر في المعابد وبالقرب منها على العديد من التماثيل للملوك الكوشيين- بيًّا، وتهارقا، وتانوت آمون (تالتاماني)، وأسبالتا، ونتاكامانى وغيرهم، وأيضاً، وهو الأهم، نقوش يرجع تاريخ أقدمها إلى عصر حكم الأسرة الثامنة عشرة. من بين تلك النقوش، على سبيل المثال مسلة تحتمس الثالث، التى تكمل حولياته، ومسلة الأمير خاليوت، ما يمكن عده من بين أهم المصادر التاريخية.

تعطى أعمال إعادة البناء والتعديلات اللاحقة في المعابد، وكذلك الأشياء الصغيرة التى وجدت بداخلها وبالقرب منها، مادة للحكم على التحولات والتقلبات السياسية الجارية في كوش على مدى ألفي سنة تقريباً. ورجع ريزنر مجدداً بعد فترة

قصيرة 1919/18 إلى معابد جبل البركل حيث بدأ في التنقيب في جبانات كوش الملكية الواقعة بالقرب من نبتة: نورى و الكرو. أثبتت المواد إلى كشف عنها عالم الآثار الأمريكي أهميتها البالغة. فقد مكنته تلك المواد من القيام، للمرة الأولى، بوضع جدول كرونولوجي مطلق لتاريخ كوش في عصر مملكة نبتة. في المقام الأول وبمساعدة المواد المكتشفة التى تحمل أسماء الملوك، تمَّ التعرف على أهرام الجبانتين. بالطبع لم يتعرف ريزنر على أسماء المدفونين في كل الاثنين وخمسين أهراما التى نقب فيها، لكن التى بقيت بدون أسماء هي الأقلية.

لتأريخ المقابر استخدم ريزنر معطيات نقوش جبل البركل إلى جانب نصوص أخرى تم اكتشافها في مصر ولجأ إلى الأساليب الآتية:

- قارن أشكال الأهرام وأساليب تشييدها.
- أخضع التماثيل الجنائزية (الشوابتى)، والأواني من المرمر، والمسلات، وغيرها من التى وجدت في الأهرام أو بالقرب منها إلى التحليل التيبولوجي.
- كذلك حلل تيبولوجياً موضوعات القرابين بما في ذلك الفخار وكل الألواح الممكنة سواء التى عليها نقوش أو التى بدون نقوش، والأسلحة وغيرها.
- مقارنة التموضع النسبي للأهرام.

في ذلك انطلق ريزنر من الافتراض بأن أفضل الحرفيين والفنانين أسهموا في بناء الأهرام وفي إعداد المصنوعات التى وجدت فيها محافظين على تقاليد الفنانين المصريين للأسرة الخامسة والعشرين. مع ذلك كانت تظهر من وقت لآخر أساليب عمل جديدة وبعض الثغرات في الشكل والأسلوب. في هرم كل ملك وجدت مصنوعات تشير إلى تداخل أجيال لتؤلف مجموعة واحدة. بهذه الطريقة وجد ريزنر نفسه مضطراً لدراسة نظام تواتر المجموعات على أساس المصنوعات المختلفة وتعاقبها، وأشكال تبدل تقنية بناء الأهرام، وكذلك مواقعها من حيث علاقات بعضها بالآخر، مع ملاحظة أن الأكثر تميزاً من حيث الموقع هي التى شيدت في وقت أسبق. ونشر ريزنر تأملاته بصورة مقتضبة في مقال بمجلة الآثار المصرية (1923) وقدم في

نهايته جدولاً يوضح تواتر تعاقب فترات حكم ملوك نبتة والسنوات النسبيَّة لحكمهم. وقد استفاد تلامذته لاحقاً من منهجه وأضافوا إلى ملاحظاته واستنتاجاته ودققوها، بخاصة جدوله الكرونولوجى. وظلت الاستنتاجات الأساسية بدون تعديلات جذرية ولم تفقد صلاحيتها إلى اليوم قاعدة لتشييد كرونولوجية كوش في القرون الثامن- السادس ق.م. وللوصف الشامل لجبانات كوش الملكية.

تؤرخ أقدم المدافن في الكرو بمنتصف القرن التاسع ق.م. وتشبه إلى حد بعض مدافن كرمة. جثمان المتوفى يسجى على عنقريب دون أن يتعرض للتحنيط. من ثم يهال على المدفن كوم ترابي ضخم. على مدى القرنين اللاحقين تعرض شكل المقبرة إلى تغيرات جذرية، فتحولت بداية إلى مسطبة ومن ثمَّ إلى هرم. في أقدم مدافن هذه الجبانة تم دفن ستة أجيال هم أسلاف مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين بيًّا، وكذلك والده كاشتا. للأسف فإن كل المقابر كانت قد تعرضت لنهب شامل في القدم بحيث أصبح مستحيلاً تحديد أسماء المدفونين فيها. من بين الأشياء التى بقيت كان هنالك العديد من القطع الذهبية.

مع ظهور الأهرام تبدأ في السيادة طقوس الدفن المصرية، بما في ذلك التحنيط، رغم أن الجثمان ظل يسجى على عنقريب. النقوش على التماثيل الجنائزية ساعدت في التعرف على أسماء أولئك المدفونين في تلك الأهرام- ملوك وملكات الأسرة الخامسة والعشرين، بدءاً من بيًّا وزوجاته. تمَّ العثور على كميات كبيرة من المصنوعات الفنية بما في ذلك حلى ذهبية.

فاقت أهرام في نورى نظائرها في الكرو حجماً. كان تهارقا هو أول من شيد هرماً لنفسه في نورى وسبب ذلك في الغالب عدم توفر موقع ملائم في جبانة أسلافه. استخدمت جبانة نورى على مدى ثلاثة قرون ونصف- من 690 حتى 337 ق.م.، أي حتى بعد أن نقلت العاصمة إلى مروى. إجمالاً تم تنظيف 18 مقبرة لملوك و 54 مقبرة خاصة بملكات. خلال ذلك تم تحديد العديد من الأسماء غير المعروفة سابقاً، وكذلك تتابع حكم العديد من الملوك. وأعطت هذه الجبانة الكثير من الآثار التى

تسمح بالحكم على العلاقات التجارية والصلات الثقافية لنبتة ومروى، وأيضاً على تطور ثقافاتهما الأصيلة. للأسف لا زالت بعض النقوش التى تم الكشف عنها تنتظر النشر.

في عام 1920 وبعد الانتهاء من التنقيب في معبد آمون بالبركل شرع ريزنر في دراسة الجبانات الثلاث في مروى (البجراوية) الجنوبية والشمالية والغربية، والتي عاصرت أقدمها مدافن الكرو. استخدمت الجبانة الغربية حتى العصر المروى المتأخر، ومن ثمَّ فإنها تكون قد استخدمت على مدى ألفية كاملة. خصصت هذه الجبانة لأعضاء الأسرة الملكية الأقل شأناً. في وقت متزامن مع الجبانة الغربية أنشأت الجبانة الجنوبية حيث استمر الدفن فيها حتى الربع الأخير من القرن الثالث ق.م. (آخر المقبورين فيها الملكين أركاكامانى وأمنيسلو، والملكة بارتارى). وعندما لم تتبق مواقع جيدة نشأت إلى الشمال منها الجبانة الجديدة الشمالية التى استخدمت حتى نهاية مملكة مروى. هنا يمكن تتبع، مع مرور الوقت وضعف الصلات بمصر، العودة المجددة إلى عادات الدفن القديمة بما في ذلك دفن العبيد الذين كان عليهم مرافقة سيدهم للوقوف على خدمته في العالم الآخر. وتسمح الكميات الهائلة من منتجات الفن المنظور بدراسة تطور الثقافة المحلية على مدى قرون كثيرة. منتجات الحرفيين ليست هامة فحسب لتحديد التواريخ وإنما تعطى إمكانية تحديد طبيعة الصلات بعالم البحر الأبيض المتوسط وكذلك مستوى تأثير الأخير على أداء فناني مروى الذين حققوا قدراً عالياً من المهارة، بخاصة في تجهيز مختلف أنواع الحلي.

9

البحث الآثاري في سمنة وأورونارتي

في1923/24 و 1929-1927 عملت البعثة المشتركة لجامعة هارفارد ومتحف بوسطن للفنون الجميلة بقيادة ريزنر عند الجندل الثاني في سمنة على ضفتي نهر النيل وأيضاً في جزيرة أورونارتي. كان لبداية العمل في دراسة التحصينات والقلاع المصرية في النوبة الشمالية التى شرعت هذه البعثة في إنجازها، أهمية كبيرة لإعادة تركيب تاريخ العلاقات بين مصر وكوش في العصر السابق لنشوء مملكة نبتة. بالنسبة لتاريخ كوش في الثلاثمائة وخمسين سنة اللاحقة لم تعط تلك الأعمال مادة تذكر خلافاً للأعمال في قلاع أخرى، على سبيل المثال في بوهين حيث تمَّ الكشف، كما في سمنة وكمة، عن آثار مثيرة للملكتين القديمة والوسطى. يشير معبد سمنة الذى شيده تهارقا من الطوب غير المحروق أمام المعبد القديم لتحتمس الثالث، إلى أن حكام نبتة التفتوا إلى أهمية تلك التحصينات الواقعة في الطريق الرئيس الذى يربط كوش بمصر.

إذا استثنينا أعمال ريزنر بعد الحرب العالمية الأولى، فإن البحث الآثاري في النوبة الشمالية وبخاصة في السودان كان محدوداً للغاية حتى نهاية العشرينات. في عام 1929 ارتباطاً بقرار رفع مستوى خزان أسوان إلى 122 متر مما ينتج عنه رفع منسوب المياه في البحيرة بين أسوان ووادي حلفا، بدأت مرحلة استكشافية جديدة استمرت حتى عام 1934. تم نشر نتائج تلك الأعمال في سلسلة تقارير شملت تحت عنوان "البعثة الآثارية للنوبة 1929-1934".

لم تجر في السودان في تلك الفترة ولا في السنوات التى تلت أية أعمال، ولذلك فإن المواد المكتشفة أضاءت فقط تاريخ الأطراف الشمالية لكوش. اشترك في الحفريات وفي وصف الآثار أبرز علماء الآثار والدراسات المصرية: بطراوى، وغوتيه، وجريفيث، وكيروان، ومونير دي فيلارد، وريدر، وشتيندورف، وايمرى، ويونكر. وقد

تـمَّ إصـدار تسـع عشـرة مجلـداً مـن هـذه السلسـلة في الفترة مـن 1929 حتى 1938. للأسـف فـإن العديـد لازال غير منشـور أو أنـه وصـف بصـورة غير مكتملـة في تقـارير مبدئية.

بالطبع فإن تلك الأبحاث التى أجريت في جبهة واسعة، رغم أنها انحصرت في منطقـة محـدودة، سـلطت الضـوء على كل مراحـل تـاريخ الـبلاد بـدءاً مـن العصـر الحجـري القـديم، وكللـت بالنجـاح في الكشـف عـن آثـار هامـة: هكـذا تـمَّ على سـبيل المثال في عامي 1931- 1932 الكشف عن مدافن الزعماء أو الملوك النوباديين في بلانا وقسطل، والتي ينتمى لما يسمى بالمجموعة المجهولة والتي أُرخت بالعصر البيزنطي.

أماطت الحفريات التى أجراها ايمرى وكيروان بين وادى السبوع وأدينـدان عن عدد من الجبانات المروية، التى كانت كبيرة إلى حد ما في بعض الحالات، والتي أعطت مواد تسمح بالحكم على حجم التجمعات السكانية في المنطقة المعنية في عصر نبتـة- مروى ومدى انتشـار التـأثير السياسـي للملـوك الكوشـيين. للأسـف فـإن غالبية المدافن كانت قد تعرضت للنهب في القدم، وانحصرت المكتشفات فقط في الفخار، والحلي الصغيرة، وبعض اللوحات الجنائزية المتفرقة. وبعد أن قدم ايمرى نتائج تلك الأعمال في تقارير مبدئية موجزة، قام بالاشـتراك مع كيروان بنشـر تقرير أكثر شمولية قدما فيه وصفاً لمقابر الجبانة المروية في وادى السبوع ، وكورسكو، وأمادا، والديوان، وتوماس، وأبى سمبل وغيرها. ومع ثراء ما تم جمعه من مواد فإن ذلك ما كان كافياً للحكم على مستوى التفاوت الاجتماعي وسط السكان المحليين في عصر نبتة- مروى. شمل التقرير نبذة تاريخية قصيرة عن تاريخ النوبة الشمالية منذ العصـر الأسـرى المبكـر حتى انهيـار مملكـة مـروى. والحـق وصـف الموضـوعات الأثريـة بالخصـائص التيبولوجيـة للمـواد المختلفـة (الفخـار، والجعـارين، والأختـام، والتمـائم وغيرها)، وأيضاً المقابر. أفرد فصل خاص لوصف قلعة كوبان والإقامة الملحقة بها. وبما أن القلعة قد هجرت بنهاية الأسرة العشرين فإنه لم يتم الكشف آثار للعصر

اللاحق تقريباً حتى بداية العصر المسيحي، عندما استغلت القلعة مجدداً وأزيلت عنها الرمال جزئياً.

10

الحفريات في كوة والأطراف الشمالية لكوش

انحصرت أعمال التنقيب في السودان في تلك الفترة في منطقة الجندل الثاني- الرابع. ففي 1930/31 عملت بعثة جامعة أكسفورد بقيادة جريفيث، وبعد وفاته بقيادة كيروان في الأعوام 1936/35/34، في موقع كوة، جم أتون القديمة. هنا فيما وراء الجندل الثالث نشأ موقع للإقامة، واحتمالاً مدينة كانت في الغالب مركزاً إدارياً للمنطقة، إذا ما أخذنا بالحسبان الأهمية التى أولاها الفراعنة المصريين والملوك الكوشيين لها. تمَّ تأسيس الموقع من قبل أمنحتب الثالث أو أخناتون على الضفة اليمنى للنيل بمواجهة دنقلا الحالية بحوالي 10-12 كيلو متر إلى الجنوب منها. أقدم المعابد في كوة شيده توت- عنخ-آمون. فيما بعد نقش كل من رمسيس الثاني والثالث والرابع أسماءهم. المعبد الثاني في كوة شيده شاباكا وكرسه لإلهة مياه النيل أنوكيس. إلا أن الازدهار الفعلي لكوة يبدأ مع اعتلاء تهارقا إلى العرش والذي، وفق ما تشير اليه نقوشه والآثار المعمارية المكتشفة، قام هنا بنشاطات هائلة. شيد تهارقا معبد آمون الضخم الذى تشبه خريطته معبد صنم. كما أن تهارقا رمم المعبد الذى شيده توت- عنخ- آمون، وقام بزراعة البساتين في الموقع. وفيما بعد ترك العديد من ملوك نبتة ومروى بصماتهم في كوة (أمان-نيتى-ايركى، وأسبالتا، ومالييناكن وآخرون). المبنى الضخم، المسمى حرفياً "القصر الشرقي" يعود تاريخه إلى العصر المروى، في الغالب القرنين الثاني- الأول ق.م. كما تم العثور في كوة على آثار تعود لعصر أغسطس. في الموسم الثاني للحفريات تم تنظيف عدد من المنازل أشارت إلى مراحل متعاقبة للإقامة. كل هذه الآثار المعمارية مع ما وجد فيها من موضوعات (في عدادها شقوف فخارية بخاصة اليونانية والرومانية) تمثل مركباً للمصادر هاماً، والذي يسمح بإعادة تركيب لحظات متقطعة من تاريخ نبتة ومروى، على سبيل المثال

الأحـداث التى ارتبطـت بحملـة بيترونـى، وأيضـاً تتبـع العلاقـات التجاريـة والثقافيـة لكوش في الألفية الأولى السابقة للميلاد.

إلا أن أكبر اكتشـاف في كـوة أنجـزه علمـاء الآثـار، حوليـات تهارقـا وأمـان-نيتى-ايريكى، لا تقـل مسـتوى عـن النقـوش التى تـمَّ الكشـف عنهـا في حينـه بجبـل البركل. أهميـة الحفريـات التى أجريـت هنـا كبيرة بخاصـة لأن وصـفها نشـر بصـورة رائعـة مـن جانب ليمنج ماكادام بمشـاركة كيروان وباسـتخدام المواد التى عثر عليها جريفيث. إلا أن البحث في كوة بعيداً عن أن يكون قد اكتمل.

فـي موسـم 1935/34 أجـرى كيـروان حفريـات فـي فركـة-علـى بعـد حوالي 150 كيلومتر إلى الجنوب من وادي حلفا. أعطت الجبانات التى نقب فيها والتي تنتمي للمجموعة المجهولة، أي النوباديين، كما في بلانا وقسطل، مادة أماطت اللثام عن أهمية التراث الثقافي لنبتة وبخاصة مروى.

لم تعط الحفريات التى أجريت في 1936-1938 في سيسبى (التى تقع على بعد حوالي 270 كيلومتر إلى الجنوب من وادي حلفا) حيث وجدت قلعة وموقع تابع لها من عصر المملكة المصرية الحديثة، أية آثار لعصر نبتة- مروى.

وفي عمارة (الواقعة حوالي 100 كيلومتر إلى الشمال) عمل في الأعوام 1937-1939 و 1947-1948 علماء الآثار الإنجليز. تمَّ الكشـف هنـا أيضاً عـن مدينـة وجبانـة من عصر المملكة المصرية الحديثة. فقط في الضفة الشرقية للنيل تمَّ العثور على بقايا معبـد مروى. وتمَّ الكشـف عـن مدافن متفرقـة للمجموعـة المجهولـة. مـن هنـا انطلقت الطريق إلى واحة سليمة. هكذا يبدو أن عمارة مثلت البوابة إلى وادي النيل بالنسبة للقوافل القادمة من الغرب. وبما أن العمل الذى أجرى هنا كان مجرد استكشاف أكثر منه حفريات فإن نتائج العمل، كما هو بالنسبة لسيسبى، لم تنشر كاملة.

11

البحث الآثاري في وسط السودان

بـالطبع فـإن الحـرب العالميـة الثانيـة التى انـدلعت أدت إلى توقـف البحـث الآثاري لسنوات في وادي النيل. فقط في الخرطوم تمَّ الكشف أثناء أعمال بناء جارية عن مدافن مروية واحتمالاً، من عصر نبتة، والتي درسها آركل ووصفها. وكانت بقايا المتاع الجنائزي- فخار، ورؤوس أسهم من الحديد، وتمائم وغيرها- مشابهة لنظائرها التى سبق الكشف عنها في فرس وكارانوج، و احتمالاً، في مروى وجبل مويَّة. وكانت بعض الأواني المتفرقة مماثلة لتلك التى تمَّ الكشف عنها في نورى. من ثمّ فإنه هنا على ملتقى النيلين الأبيض والأزرق نشأ موقع للإقامة في عصر ازدهار نبتة، وهو موقع قد يرجع تاريخ تأسيسه إلى قرون سابقة.

وفي أحد مواقع الإقامة بالشهيناب (بين جبل أولياء والجندل السادس إلى الشمال من الخرطوم) والذي يرجع تاريخ نشوئه، انطلاقا من المكتشفات الهائلة، إلى العصر الحجري الحديث، كشف آركل في1950/49 عن مدافن مروية: خمسة منها لأطفال وستة لراشدين. يؤرخ الموقع بحوالي سنة 100 – 150 ق.م. المتاع الجنائزي بها كان عادياً: فخار، وتمائم، ورؤوس أسهم، وقطع من الكتان. أهمية هذا الكشف في أنه سلط الضوء على حجم السكان في ذلك العصر.

في شتاء 1952/51 أكد كراوفورد، نتيجة رحلة أنفذها للمنطقة بين الجندلين الرابع والخامس بغرض رسم خرائط للتحصينات المسيحية القروسطية والكنائس الموجودة بها، أنه وفي التقاوى وجد موقع إقامة يرجع تاريخه للعصر المروى، وأنه وجدت في الجريف مدافن يعود تاريخها للفترة نفسها. بالإضافة فإنه حدد موقع إقامة بالقرب من الفكى محمود وفي القطينة على النيل الأبيض، إلى الجنوب من الخرطوم. يفترض كراوفورد أن الفخار المروى يمكن تقسيمه إلى شمالي وجنوبي. تنتمي إلى الشمالي الأواني الفخارية المصنوعة من الصلصال الأحمر، وكذلك

الأواني ذات الزخرف المرسوم. الأواني المصقولة ذات الزخرف المحفور تم إنتاجها في الجنوب.

إلى أواخر العصر المروى (270- 350 م) يرجع المدفن التلي في العشرة (وهى قرية تبعد 5 كيلو متر إلى الجنوب من أمدرمان) والذي عاصر المدافن المروية المتأخرة، والتي ارتبطت بتحركات النوباديين، ومن ثمَّ بانتشار ثقافة المجموعة المجهولة كما تتشابه مع المدافن التلية في تنقاسى، الواقعة على بعد 10 كيلومترات إلى الجنوب من مروى الحالية على ذات الضفة من النيل، مع بعض الاختلاف في التفاصيل الدقيقة. ويلاحظ أن المتاع الجنائزي في مدافن تنقاسى كانت أكثر فقراً مقارنة بمدفن العشرة.

في ربيع 1954 قام شيتيك بدراسة طريق القوافل من نبتة إلى مروى (كبوشية) والذي يسير مخترقاً صحراء البيوضة. أظهرت هذه الدراسة آثار ترجع في الأساس للعصر المسيحي.

12

حملة إنقاذ آثار النوبة الشمالية

في عام 1955 بدأت مرحلة جديدة للبحث الآثاري في النوبة الشمالية والسودان عندما بدأت مصر، بعد تحريرها من الاحتلال الاستعماري طويل المدى، في وضع مشروع خزان أسوان (السد العالي) والذي سيؤدي إلى إغراق منطقة تمتد إلى 500 كيلو متر من الجندل الأول حتى كوشه في الجنوب. تطلب ذلك تنفيذ أعمال إنقاذ هائلة للآثار ودراستها. هكذا لأكثر من عشر سنوات تعمل العديد من البعثات من أقطار مختلفة تحت إشراف منظمة اليونسكو. بالطبع فقد انصب الاهتمام بالمنطقة المهددة بالغرق، ولذلك فإن البحث في المناطق الجنوبية كان في منطق متفرقة. نتائج الحفريات، باستثناء القليل، لا زالت تنشر في تقارير مبدئية موجزة للغاية. بالتالي فان البينات المتحصل عليها والمواد غير متوفرة فعلياً للاستخدام العلمي، وتلمح التجربة إلى أنه يستبعد أن يتم نشرها كاملة في وقت قريب. الحقيقة أن آثار عصر نبتة- مروى قليلة عموماً نوعاً وكماً. إن ذلك مفهوم حيث أن البحث يجرى في الأطراف الشمالية لكوش بعيداً عن مراكزها السياسية والإدارية.

بدءاً من عام 1951، بداية بصورة متقطعة، ومنذ 1961 بصورة منتظمة سنوياً قدم ليكلان في دورية ملخصاً لاكتشافات البعثات الآثارية العاملة في السودان ومصر، مع ببليوجرافيا مفصلة، مغطياً كل ما تمَّ التوصل إليه خلال موسم الحفريات الجاري. ويجدر ذكر أن آدمز قدم بإيجاز النتائج التى تم الحصول عليها في السنوات الأخيرة في النوبة الشمالية والسودان. وقد حظيت الفترة من نهاية السيادة المصرية في كوش حتى قيام الحضارة المجهولة بخمس صفحات ونصف الصفحة في هذا الموجز. هذا إلى جانب التقارير التى سجلها رؤساء البعثات ، والتي نشرت عادة في مجلة "كوش". نحاول أن نجمل ما تم إنجازه في كل المواقع التى يرجع

تاريخها إلى عصر نبتة- مروى خلال الاثني عشرة سنة الأخيرة، من عام 1955، وسنقوم بعرض المادة باتجاه النيل الأعلى (أي من الشمال إلى الجنوب).

هناك على حدود الدوديكاسخيونس حيث قامت الحدود عادة، التى تفصل ممتلكات البطالسة، ولاحقاً الرومان، عن الخاضعة لسيطرة ملوك كوش عثرت البعثة الإيطالية المتحدة برئاسة دونادوني في المحرقة بالقرب من المعبد الروماني على ست مدافن مروية تغطيها بنية فوقية أقرب إلى هيئة مساطب. وعثر فيها على نماذج من المصنوعات الفخارية المميزة للعصر الروماني، وأيضاً كأس من البرونز مزخرفة مشابهة للكؤوس التى سبق العثور عليها في كارانوج. يبدو أن الكوشيين عاشوا دوماً في هذه المنطقة الحدودية، ويحتمل داخل الممتلكات الرومانية.

بالقرب من توماس (كارانوج)، حيث نشأ مركز إداري في العصر الإغريقي- الروماني على حدود مملكة مروى، عثرت بعثة معهد الدراسات المصرية لجامعة ستراسبورغ على مسلة ولوحة قرابين تحملان اسم أبراتوى- حاكم (بشتى) هذه المنطقة. إن أبراتوى معروف من نقوش أخرى ومن الخربشات الإغريقية والديموطيقية في معبد فيلة، والتي يمكن بفضلها تحديد تاريخه بـ 253 و 260 م. بمعنى ثانٍ فإن أبراتوى كان معاصراً للملك المروى تيكريد-أمانى (246- 266 م.) وفقاً للإفادة المقتضبة التى قدمها ايمرى فإنه تم العثور في إبريم (بريميس) في عام 1961 مدافن يرجع تاريخها للعصر المروى، وسبع مسلات من بينها قبطية، وكذلك العديد من الأواني البرنزية والزجاجية والفخارية. فيما بعد في 1964/63 اكتشف بلملى هنا نصوص مروية، وفي 1966 برديات جزئية عليها كتابة كورسيفية مروية، وهى المرة الأولى التى يتم فيها الكشف عن مثل هذه المادة. بالإضافة تم الكشف عن فخار مروى مزخرف. فيما يتعلق ببوابات القلعة التى نظفها بلملى فإنها شأنها شأن التحصينات كان قد شيدها الرومان بعد حملة بتروني (23ق.م.).

نقبت البعثة الإسبانية في مسماس جبانة مروية حيث وجدت نماذج رائعة من الفخار المروى المغطى برسوم ملونة. جبانة أخرى أجرى التنقيب فيها في توشكي في 1960/ 1961 من جانب البعثة المشتركة لجامعتي ييل وبنسلفانيا. ساعدت المصنوعات الرومانية المستوردة في تحديد تاريخ نشوء الجبانة. في واحدة من المقابر وجد ختم من البرنز نقش عليه شكل بأربعة أجنحة وأربعة أرجل شديد الشبه بالمردة المجنحين البابليين. ومن المكان نفسه جاءت النصوص المروية على البرديات الجزئية. فيما بعد تم العثور على مسلة مروية تحوى 13 سطراً في البنية الفوقية لمقبرة يرجع تاريخها للعصر القبطي، وتنتمي المسلة لشخص باسم ملى- وش. في أرمينى بالجوار على الضفة الشرقية نسخت مخربشات مروية. بعد انتشار المسيحية استمرت الإقامة التى تأسست في العصر المروى وهو ما يؤكد عليه العثور هنا على مسلات مروية جزئية وتماثيل "با" وبقايا بنيات فوقية للمدافن استخدمت في تشييد الكنيسة.

تقريباً على بعد كيلومترين ونصف الكيلو إلى الشمال من المعبد الكهف في أبى سمبل، في الصحراء ، قامت بعثة متحف ليدن بتنظيف مدينة كانت موجودة في القرون الأولى للميلاد احتلت المدينة مساحة120x220 متر. تظهر بوضوح ثلاث مراحل للإقامة. لم يتبق من منازل الطبقة الأولى شيئاً سوى الأساسات على عمق أربعة أمتار، فوق تلك الأساسات تمَّ لاحقاً تشييد منازل الطبقة الثانية، والتي بقيت ثلاثة منها بحالة لا بأس بها. شيدت جدرانها من الطوب والسلالم وقوائم الأبواب من الحجر. عثر في الأفران على بقايا طعام-حبوب وفواكه. في القرنين الثالث والرابع، كما تشير منازل الطبقة الثالثة، أصبح الموقع فقيراً. استخدم الناس للمعاش منازل الطبقة الثانية. جمع علماء الآثار الكثير من شقوف الفخار المغطى برسوم ملونة، والمصابيح الهلنستية، والدمى، والتمائم وغيرها، وكذلك اوستركون عليها نصوص ديموطيقية ومرَّوية وخرائط المنازل. الإقامة هنا كانت زراعية وانتعش فيها الغزل مما مكن من نشوء مبادلة مع كل من الجنوب والشمال حيث تمَّ جلب الفخار ومواد

الترفية (مثل المصابيح الرومانية). هذا المركب يمثل واحدا من المواقع القليلة التى أعطت تصوراً عن حياة السكان وعاداتهم في الجزء المروى من النوبة الشمالية في القرون الأولى للميلاد.

موقع إقامة مرَّوية آخر كبير حكماً بجبانته وجد في جبل آدا واستمر إلى ما بعد ذلك كشف علماء الآثار من مركز البحوث الأمريكي في مصر في عام 1962 بقايا أهرام شيد بعضها من الطوب غير المحروق، وكان بعضها قد شيد على أساس من الحجارة. أُرخت الأقدم منها إلى عصر متأخر– بداية القرن الميلادي الرابع. عثر هنا على كميات كبيرة من تماثيل-با وموائد قرابين. في إحداها ذكر اسم حاكم فرس، الذى دفن في هذه الجبانة، حيث قُبر أبناء النبلاء المحليين (بشتى). كما يشير احد النصوص القليلة فإن المدينة سميت قديماً "آجى". وقد حصنت المدينة باكروبول تمَّ تنظيف جدرانه الضخمة. عثر في القلعة على مخطوطات باللغة النوبية القديمة ووثائق عربية.

اكتشافات مثيرة ميزت البحث في بلانا وقسطل، حيث استمرت في عام 1959 الأعمال في الجبانة. هنا تمَّ الكشف عن مدافن زعماء أو حكام النوباديين وأفراد أسرهم. المدافن التلية في بلانا (عددها 26)أُرخت بالقرون الثالث- السادس للميلاد. بعضها لم يتعرض للدمار مما سمح بإعادة تركيب صورة مكتملة عن الطقوس الجنائزية. المتاع كان غنياً ومتنوعاً. كثيرة كانت المصنوعات من المعادن: المصابيح، والأواني، والأحقاق. كان من بينها مصنوعات مستوردة. وفي قسطل تمت دراسة 43 مدفناً تلياً لحضارة المجموعة المجهولة، والتي مثلت ليس فقط نوباديين وإنما السكان المحليين ما بعد مرويين. كذلك درس عد من المدافن المروية كان معظمها قد تعرض للنهب. لكنه في بعضها بالرغم من ذلك وجدت بعض الحلي، ومواد للزينة الشخصية، والدمى، والمصنوعات الزجاجية والفخارية، وألواح القرابين منها ثلاثة تحمل نصوصاً.

بالقرب من المقابر "الملكية" التى كان قد نقب فيها سابقاً ايمرى، وجدت جبانة مروية ممتدة عثر في مدافنها على ما يزيد عن 600 قطعة مختلفة والكثير من المصنوعات الفخارية المزخرفة برسوم ملونة متنوعة: نباتات، وتماسيح، وطيور، وأسماك، وأفاعي، وكلاب، و رؤوس بشرية. المصنوعات من الزجاج وجدت مكاناً لها في تلك المجموعة. جمعت العديد من الحلي المختلفة: التمائم، والختم، والأسورة، والعقود. وجدت في بعض المقابر قطع من الكتان، وأحذية، ورؤوس أسهم وغيرها. كل ذلك عند نشره سيعطى مادة كافية وقيمة للحكم على الفن المروى والحرف، وكذلك عن مدى الصلات التجارية.

13

إنقاذ آثار شمال السودان

كان الوضع أكثر تعقيداً فيما يتعلق بإنقاذ الآثار ودراستها في الأراضي السودانية. هنا بدءً من حدود البلاد مع مصر في فرس حتى كوشا، على امتداد منطقة تغطي حوالي المئتى كيلومتر، أي المنطقة المهددة بالغرق، أشارت المعلومات الأولية إلى أن ما يقارب 75 موقعاً أثرياً ستغطيها مياه البحيرة الناشئة، وقد ازداد عدد هذه المواقع بعد إجراء المسح الجوي للمنطقة. وعند بدء العمل في خزان أسوان(السد العالي) كانت المواقع التى أخضعت للدراسة في هذه المنطقة لا تتجاوز العشرة وكانت الدراسة نفسها جزئية. محق كان فيركوتيه، الذى كان حينها مديراً لمصلحة الآثار السودانية، وهو يخطط لحملة إنقاذ آثار المنطقة المهددة أن وصفها بأنها غير منقبة. كلياً تم تسجيل 300 موقع في المنطقة تحتاج للدراسة والإنقاذ.

بداية تم بمساعدة المسح الجوي وضع الخارطة الآثارية للمنطقة من وادي حلفا حتى كوشا، والتي اكتملت في عام 1960 وتم التأكيد على قائمة المواقع التى يتوجب العمل فيها في المقام الأول. يجرى الآن بإشراف اليونسكو وبمشاركة المجتمع العلمي العالمي هذا البحث والدراسة على مدى سنوات التى أعطت نتائج واكتشافات مثيرة كما هو واضح حتى من التقارير المبدئية المختزلة.

في 1960-1962 أجريت من فرس في الشمال حتى جمى في الجنوب، أي على امتداد 50 كيلو متر في الضفة الغربية للنيل، عمليات المسح والاستكشاف المفصلة. عموماً في هذا الجزء تمَّ تحديد 312 وقعاً تحتاج للدراسة والإنقاذ.

إذا كانت البعثة البولندية العاملة في فرس والمنطقة المجاورة لها قد كللت مساعيها بالكشف عن آثار العصر المسيحي الشهيرة (الكنائس، واللوحات الجدارية، ومدافن الأساقفة وغيرها)، فإن آثار عصر نبتة ومروى في المنطقة كانت متواجدة بصورة أسوأ كماً ونوعاً. في داخل فرس نفسها وفي التل القائم فيما وراء الحصن

المحيط تمَّ تنظيف بقايا مساكن يرجع تاريخها للعصر المروى. مثيرة كانت القطع المعمارية والأجزاء من التماثيل التى عثر عليها هنا: أفاريز، وقوائم الشبابيك المنقوشة، أجزاء من نقوش بارزة ، التى استخدم البعض منها في رص الكنيسة عند بنائها، وكذلك ألواح القرابين وأجزاء من نقشين أرخهما ميخالوفسكى بالقرنين الميلاديين الأول والثاني، أي فترة ازدهار النوبة الشمالية. استمرت أعمال التنقيب حتى العام 1964.

على بعد ستة كيلومترات إلى الجنوب من فرس، في عكشة، عملت بعثة مشتركة من العلماء الفرنسيين والأرجنتينيين في موسم 1962/61 ترأسها كل من فيركوتيه وروزنفاسير. بالقرب من معبد رمسيس الثاني وفي الجزء الجنوبي الشرقي للمنطقة المصدق للبعثة العمل فيها تم الكشف عن جبانتين من العصر المروى، كانت الثانية منهما هي الأحدث عمراً (المتأخرة) بما يجعلها تتداخل مع مدافن المجموعة المجهولة (القرن الميلادي الرابع). خلال الموسمين من العمل تمَّ حفر 92 مدفناً كان الجزء الأعظم منها ذات شكل أشبه بالمنجم، مع وجود تجويف في قاع الحفرة. ورغم أنها كانت قد دمرت ونهبت في أزمان قديمة فإنه قد تمَّ النجاح في جمع كميات هائلة من القطع التى تسلط الضوء على عادات أهل المكان: أواني تحمل رسوماً ملونة مختلفة الأشكال على جدرانها، وأقراط، وختم، وتمائم، وأحقاق للعطور، وكؤوس من النحاس والبرنز، وبقايا قطع من الملابس، وبقايا أحذية من الجلد، ومصنوعات من الزجاج والخزف. الكثير من تلك المصنوعات نتاج عمل حرفيين يمتلكون قدراً عالياً من المهارة الفنية. ساعد المناخ الجاف في الاحتفاظ بجثمان الموتى في المقابر رغم نشاطات اللصوص المدمرة. احتفظت العديد من الهياكل بشعرها وجلدها، مما أعطى مادة قيمة للأنثروبولوجيين. في حالات متفرقة بقيت آثار الوشم. من الجبانة المتأخرة تأتي المسلة الجنائزية التى تحوى 17 سطراً والتي تخص أحد أفراد طبقة النبلاء المحليين واسمه أتقى Atqé بن اميريه Amerêye (الأب) وفقيكه Bêqêke (الأم) وهو نص توسل إلى اوزيريس وايزيس

بعبارات نمطية معتادة وأرجع روزنفاسير تاريخه إلى القرن الرابع الميلادي. وتوجد ثلاث جبانات مروية في الضفة الغربية أيضاً في سرة القريبة من عكشة. جبانتان منها متأخرتان وتتداخل كرونولوجياً مع مدافن المجموعة المجهولة. تمَّ التنقيب في عشرين مقبرة كانت كلها قد تعرضت للنهب. استخدم الطوب غير المحروق لتشييد المقبرة عادة لبناء القبو. شكل الأواني من المقابر مشابه لما وصفه جريفيث في تقريره عن حفريات حينها في فرس. شمل متاع المقابر خرز من مواد مختلفة بما في ذلك الزجاج المتوفر بكثرة، وختم، وسنارات صيد أسماك، ورؤوس حراب وغيرها.

أبعد إلى الجنوب في أرقين تمَّ أثناء المجسات التجريبية التى أجريت في موسم 1962/61 على الضفة الغربية للنيل، تحديد مواقع عدد من المدافن المروية المتأخرة. وجد في المدافن المختلفة الأشكال التى أزيل التراب عنها، والتي كانت صيداً للنهابين في أزمان قديمة، متاع تألف أساساً من الفخار. بالقرب من القرية الواقعة مباشرة على ضفة النيل، نشأت إقامة في العصر المروى استمر الناس يقيمون بها حتى انتشار المسيحية. بالقرب من القرية وجد فرن لحرق الأواني. هذا الفخار إلى جانب ما وجده آدمز أيضاً يسمح بالتعرف بصورة أفضل بمهارة الفخاريين القدماء.

في موسم الحفريات التالي شرعت البعثة الإسبانية في التنقيب الأكثر شمولاً في أرقين. في نقع العرب نقبت البعثة في 220 مقبرة مختلفة الأشكال لجبانة مروية. كان من بينها مسطبتين من الطوب غير المحروق. استخدمت الجبانة من القرن الأول ق.م. حتى القرن الميلادي الثالث. المتاع الجنائزي مشابه لما تم الكشف عنه في الجبانات الأخرى. مكتشفات علماء الآثار في نقع العرب اتسمت بالثراء حيث أن تلك المقابر المحلية لم تجذب أنظار اللصوص. بعض الأواني: الامفورا، والجرار المصنوعة تحت تأثير نماذج يونانية رومانية. الهام هو أن التقرير الكامل لعمل البعثة قد تمَّ نشره.

في الجزيرة دبروسا، حيث تمَّ الاكتفاء بالمجسات التجريبية، كشف عن مبان من العصر المروى شغلت تلك المباني مساحة 775 متر مربع. شيدت الجدران جزئياً

من الطوب غير المحروق، وجزئياً من الحجر. حالياً نظفت خمسة منازل كانت ثلاثة منها مكتملة. وجدت فيها أواني متنوعة، كانت كبيرة الأحجام في غالبيتها مما يشير إلى أنها استخدمت لتخزين الطعام. ووجدت هنا حجارة رحى .وجدت آثار المواقد في منزلين. المنزلان الآخران شيدا من الطوب غير المحروق كانا أكبر حجماً في جزيرة جمي نارتي. احتوى واحد من المنزلين على 11 غرفة، واحتوى الثاني على 21 غرفة. الخاصة المميزة للمنزلين تبدو في تكرار مركب غرفة قصيرة و وأخرى طويلة. في الغرفة الكبيرة يوجد الموقد، وفي القصيرة خزنت الأواني. وتشير الدراسة إلى أن المنازل توسعت تدريجياً . شيدت الغرف الإضافية ملتصقة بالغرف الأساسية وذلك مع تزايد حجم الأسرة. منازل مشابهة كان قد تم الكشف عنها في كارانوج. تمَّ هجر المنزلين فجأة وبصورة متعجلة حيث غرقا بفعل فيضان عال غير عادى للنيل. ولذلك بقيت في المنزلين أواني ومواد منزلية بما فيها من أشكال يندر تواجدها في المدافن.

منازل العصر المروى تم الكشف عنها كذلك في جزيرة ميلى المواجهة لجُميّ. عند رأس جبل أبى صير وجد منزلان. بالقرب من الصخور تم تنظيف فرن لحرق الأواني مشابه لذلك الذى وصفه آدمز. من ثم فان كل هذه المنطقة كانت مأهولة بالكوشيين في العصر الإغريقي الروماني. احتمالاً أن يكون نشاطهم مرتبط جزئياً بطرق المراكب. علينا انتظار النشر الكامل لمركب منازل جمى نارتي علَّ ذلك يكشف عن صورة حياة أولئك الكوشيين وعاداتهم في تلك الفترة.

في جزيرة ماتوكا الواقعة في وسط الجندل الثاني تمَّ الكشف عن 50 مدفن مروى، شبيهة بالمدافن التى أجرى التنقيب فيها في فرس، وكارانوج ومواقع أخرى. كانت هذه الأخيرة بدورها قد تعرضت للنهب. جبانة أخرى يرجع تاريخها للعصر نفسه كانت أحسن حالاً كشف عنها إلى الشمال من جُميّ . تمت دراسة 29 مقبرة من مقابر هذه الجبانة.

في بـوهين، حيـث شـيدت في عصـر المملكـة المصـرية الوسـطى قلعـة ضخمـة لحمايـة الإبحـار في النيـل أثنـاء تفكيـك معبـد حتشبسـوت تـمَّ تحديـد آثـار النشـاط المعماري الذى قام به تهارقا.

في عـام 1957 نجـح فيركوتيـه أثنـاء مجسـات تجريبيـة أجراهـا في سـمنة (القلعـة التى كانـت تحمى الجنـدل الثـاني في العصـور القديمـة) موقـع للإقامـة (أو مدينـة) يرجـع تاريخهـا للعصـر المـروى وجبانـة تابعـة. الفخـار الرقيـق برسـومه الملونـة الرائعـة الـذى كشـف عنـه في المقابر قد يقف برهاناً على استقلال السكان وكبر حجم الموقع .

في واحـدة من أكبر جزر نهر النيـل، صـاي (على بعـد 180 كيلـومتر إلى الجنـوب مـن وادي حلفـا) أعيـد اسـتخدام القلعـة المصـرية، التى شـيدت في عصـر المملكـة المصـرية الحديثـة والتي كانـت قـد هجـرت على مـدى فترة طويلـة، في العصـر المـروى موقعاً للإقامة. على كل فقد وجد فخار مروى ومصباح في أحد المساكن. لا يستبعد أن تكون القلعـة قد دمرت أثنـاء حملـة بسماتيك الثـاني إلى كوش، وظلـت بعدهـا غير مأهولة على مدى أزمنة طويلة.

في موسـم 1964/63 كشـفت البعثـة الإيطاليـة برئاسـة شـيف جـورجيني، على بعد 300 متر إلى الشـرق من المعبـد الـذى شـيده امنحتـب الثـالث للإلهـة تي، عـن جبانـة مرويـة ضخمـة كانـت بنياتـه الفوقيـة المشـيدة مـن الطـوب غير المحـروق ذات شـكل هرمي. وقـد كانـت الجبانـة مليئـة بـالقطع التى يرجـع تاريخهـا للعصـر المـروى. وكانـت الجبانـة قـد تعرضـت للنهب في أزمـان القـدم فإنهـا لـم تقـدم سـوى عـدد مـن النصـوص ومـادة إضـافية تسـاعد في دراسـة تطـور المقـابر. في واحـدة مـن المقـابر الخاصـة بأحـد النبلاء تم العثور على ختم وبعض الحلي الأخرى.

أبعـد إلى الجنـوب في صلـب قـامت البعثـة نفسـها على مدى سـنوات بالتنقيـب في معبد امنحتب الثالث وعثرت على مخربشات مروية.

14

أعمال الإنقاذ في جزيرة مروى (البطانة)

إذا كانت العشر سنوات الأخيرة قد شهدت تنشيطاً لأعمال علماء الآثار في الأجزاء الشمالية للسودان، فإن المؤسف حقاً أن ذلك لا ينطبق على بقية أنحاء السودان الأخرى، حيث توجد المراكز الثقافية والسياسية الأساسية لمملكة مروى.

كانت أكثر الأعمال نجاحاً وأكبرها حجماً تلك التى أجراها معهد الدراسات المصرية لجامعة همبولدت (ألمانيا الشرقية) بقيادة هنتزا. لا زالت تلك الأعمال مستمرة حالياً. ورغم أن الوصف الكامل لها لا يزال قيد الإعداد فإن التقارير المبدئية والنشرات تواكب بنجاح عمل العلماء الألمان الشرقيين، مثرية معرفتنا بملاحظات مثيرة ومصادر جديدة.

في بداية 1958 أجرى هنتزا وفريقه في البطانة، جزيرة مروى القديمة، استكشافا مبدئياً لما يقارب الأربعين موقعاً آثارياً تغطى المراحل من العصر الحجري حتى الفترة السابقة مباشرة للفتح العربي. تم رسم الخرائط الجغرافية والهندسية، واستنسخت النقوش والرسامات البارزة والمحفورة، والتقطت الصور الفوتوغرافية، وتمت معاينة وقياسات العديد من المواقع بما في ذلك مواقع العصر المروى، على سبيل المثال في أم علي، حيث توجد نقوش مروية، وفي جادو حيث تمَّ تسجيل تماثيل ورسوم بارزة وما إلى ذلك. وفي مروى تمَّ الكشف عن نقوش ومخربشات جديدة. اهتمام خاص أولته البعثة لموقع المصورات الصفراء، حيث أجرت البعثة لاحقاً على مدى سنوات حفريات ممنهجة وأعمال صيانة، نتج عنها الترميم الكامل لمعبد الإله الأسد. أجريت أعمال الاستكشاف أيضاً في معابد النقعة وفي المدينة التى نشأت في أبى قيلي والتي لم تكن قد درست حتى ذلك الوقت، وقد احتوت إلى جانب معابدها على منشئات للري. إجمالا تمت دراسة عشرين موقعاً آثارياً (بالإضافة إلى الجبانات) مواقع إقامة ومعابد ومدن ومنشئات وغيرها حظي البعض منها فقط

بالتنقيب الذى أبعد ما يكون عن الوصول إلى نهايته. التقرير الموجز الذى نشره هنتزا يشير إلى شح العمل الذى نفذ حتى الآن وإلى الكنوز التى لا زالت مطمورة في باطن الأرض في هذه المنطقة.

عمل هنتزا وفريقه في المصورات الصفراء بدءاً من العام 1960 وكشفوا إلى جانب الكثير من النقوش والمخربشات عن أعمال نحت وآثار معمارية، مركب كامل للمعابد والأقداس، وأيضاً منشئات للري، حفائر وقنوات وما إلى ذلك، والتي وفرت المياه لري أراضي المعابد وبساتينها. المعبد المكرس للإله الأسد أبادماك، كما اتضح، كان قد شيده الملك أرنكامانى، والذي عده هنتزا على أساس تشابه النعوت في الألقاب قريباً من حيث الزمان ببطليموس الرابع، وهو ما يعطى بينات يمكن الانطلاق منها في تثبيت كرونولوجيا مطلقة [أعطت نتائج تحليل الكربون المشع لبعض المواد المتفرقة من العصر المروى المتأخر تقديراً للعمر 1710 بزيادة أو نقصان 1000 سنة وهو ما يعنى سنة 210 م. الشيء الذى يتطابق مع تأريخ هذا العصر].

بدأت بعثة جامعة غانا برئاسة شينى مع فريق متواضع العدد في عام 1965 في إجراء حفريات مبدئية في مروى ووضع خريطة مفصلة للمنطقة، تمهيداً للتنقيب المستقبلي. أشار أحد أكوام الخبث الذى تم تنظيفه إلى أن صهر الحديد تواصل حتى القرن الميلادي الثامن وهو ما يدل على أنه وبعد انهيار مملكة مروى فإن عاصمتها ظلت مأهولة ولم يتم الرحيل عنها. وفي بداية عام 1966 انشغل فينيك، أمين متحف برلين (ألمانيا الشرقية) بدراسة أقداس المدافن في أهرام الجبانة الشمالية بالبجراوية، والتي، احتمالاً، تم ترميمها جزئياً. كشف فينيك عن نقش خاص بأحد ملوك مروى غير المعروف من قبل "شسب عنخ ن امون ستب ن رع"، والذي حكم احتمالاً في القرن الثاني ق.م. ودفن غالباً في هرم رقم 8، الذى لازال غير محدد. أثبت فينيك أيضاً أن المدفونين في هرمي البجراوية رقم 21 و25 ليسا ملكين

كما ساد الاعتقاد، وإنما ملكتين. إلى جانب ذلك قام فينيك باستنساخ نقوش مروية جديدة.

حفريات هامة من حيث نتائجها في جزيرة مروى أجريت في 1958-1960 في ودبانقا من قبل مصلحة الآثار السودانية برئاسة فيركوتيه. هنا وجد قصر مؤلف من طابقين مربع يبلغ كل جانب منه 61 متراً. احتوى القصر على 15 صالة. خصص الطابق الأرضي للمؤن والخدمات، وعثر فيه على كميات كبيرة من نماذج الفخار، وسن الفيل، وتماثيل الأسود، ومصنوعات صغيرة أخرى. مالك القصر، بالأصح مالكته (يرى فيركوتيه، وليس بدون وجه حق، أن الملكة الأم عاشت بالقصر) التى سكنت في الطابق العلوي كما تدل على ذلك المكتشفات في الطبقة العليا. بقيت قطعة من لوحة جدارية تمثل واحدة من الكنداكات (الملكات الأم)، وفي قطعة أخرى خرطوش ملكي يحمل اسم أمانى شاخيتى، المعاصرة لأغسطس، والتي يذكرها سترابو. وكشف عن تمثال مثير يمثل شخصاً برأس فيل، مما يذكر بتماثيل الهندية مشابهة. تماثيل ولوحات أخرى تصور أسداً، وصقراً، وضفدعة وترتبط بعبادات محلية. ويدلل مصباح يحمل رسم مصارع روماني على الصلات مع روما. إلى جانب القصر تم تنظيف معبد غير كبير عثر فيه على تمثال أسد واقف ولو حتى قرابين. أيضاً تمَّ تنظيف تل ترابي غطى مبنى دائرياً بقطر 20 متر تقريباً لازالت هويته مجهولة. يدل كسر من نقش مروى على أن الإقامة وجدت منذ القرن الثالث ق.م. شيد القصر احتمالاً في القرن الأول ق.م. غالباً ما كانت ودبانقا الواقعة على ضفة النيل ميناءً للمصورات الصفراء والنقعة.

في عام 1957 تم العثور على بعد 10 كيلو مترات شمال شرق الخرطوم على أبى هول يحمل اسم أسبالتا. أشارت الحفريات التى أجريت في العام التالي إلى أن المبنى الضخم الذى شيد في العصر المسيحي، ولم يبق منه شيئاً الآن، كان قد أقيم على أنقاض مروية.

ينتظر علماء الآثار والمؤرخون الكثير من العمل في السودان لاستكمال البحث الذى بدأ فقط في العقد الأخير. لا بدَّ بالضرورة وبأسرع فرصة ممكنة من نشر تقارير الحفريات التى أجريت خلال هذه السنوات. حينها فقط يسلط الضوء على ما خفي عنا من تاريخ السودان، حينها فقط يكون ممكناً تتبع الطرق التى ربطت في القدم البحر الأبيض المتوسط بالمناطق الداخلية لأفريقيا.

المترجم في سطور:

الدكتور أسامة عبد الرحمن النور

باحث وأكاديمي سوداني بارز ومتخصص في علم الآثار والانثربولوجي، قام بالعديد من الدراسات العملية والأكاديمية، ورأس العديد من الهيئات والمنظمات والبعثات العلمية، حاصل على دكتوراه فلسفة في علم الاثار المصرية عام 1976 من معهد الدراسات الشرقية-أكاديمية العلوم السوفيتية في موسكو عن اطروحته الموسومة :الجذور المحلية للثقافة السودانية القديمة- دراسة من واقع المعطيات الآثارية. ترأس عدد من البعثات الاثرية في السودان، وله اكثر من 34 بحث عن الحضارة السودانية باللغة العربية، و7 بحوث باللغتين الروسية والانكليزية، وترجم 44 بحثاً عن اللغتين الروسية والانكليزية في مجال الاثار السودانية والليبية، وله 9 كتب في تاريخ السودان، توفي عام 2007.

البحث الاَثاري في النوبة الشمالية والسودان

ترجع أولى رسوم معابد النوبة السفلى بين فيلة والدير للمجهود الذى بذله النقيب الدنماركي ف. ل. نوردن_الذي بعثه الملك خرستيان في عام 1737 إلى مصر والسودان. ووفق د. بروس، الذى زار في عام 1769 كل من مروى وأكسوم، في جمع مادة ضخمة، إلا أن عاديات القدم في السودان والنوبة الشمالية لم تحظ باهتمامه. الشيء نفسه يمكن قوله عن و. أ. براوون، الذى وصل في عام 1793 عن طريق القوافل إلى دارفور، إلا أن عمله يمثل مرجعية لا غنى عنها للباحث في مجال الأثنوجرافيا. وفي شتاء 1813/1812 وصل ت. لوج إلى إبريم وترك وصفاً لها إلى جانب بعض الآثار الأخرى الموجودة إلى الشمال منها.